حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة التاسعة عشرة / (يوليو - أغسطس) ٢٠٢٤

98

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary |July - August 2024

إقبال واستقبال

المُقْبِلـون علـى نُـورِ الهُدَى ظَفِـرُوا ... بالنُّـورِ يُسْتَقْبَلُـونَ الآنَ، قَدْ شَعَرُوا

كأنَّ رُوحَهُـمُ فـي الخُلْـدِ سَارِحَـةٌ ... لا يَقْلَـقُـونَ إذَا مِـن بَـرْزَخٍ عَبَـرُوا

فَـذِي المَـلائـكُ هَا قامَتْ مُـرَحِّبَـةً ... تُثْنِي عَلَيْهِمْ، ويَا طُوبَى لِمَنْ صَبَـرُوا

٢ البارحة واليوم
فتح الله كولن

٢٤ السعادة الزوجية بين الواقع والمثال
د. علي مدني رضوان الخطيب

٤٢ مملكة النباتات
محمد زين العابدين

غيض من فيض

الحضارة صناعة ثقيلة وثمينة، وخسرانها خسران مبين. ولقد استطاعت هذه الأمة أن تبني حضارتها يومًا فكانت من أعظم الحضارات، ثم خبا نجمها ولم تبق سوى آثارها. فكيف كانت تلك الحضارة؟ وما أهم مميزاتها وإنجازاتها؟ وكيف أفلت شمسها، ولماذا؟ وكيف يمكن أن نستشرف المستقبل في ضوئها؟ المقال الرئيس لهذا العدد "البارحة واليوم" للأستاذ فتح الله كولن يناقش هذه التساؤلات بعمق وصدق.

أما الدكتور يحيى وزيري فيحلق بنا إلى مكة المكرمة مهوى الأفئدة والأرواح. لا شك أن المدينة المقدسة تحتل الوسط والسويداء من القلوب، لكن الدكتور يفاجئنا بأطروحة أخرى هي أن أمّ القرى تقع في موضع يتوسط يابسة الأرض لتكون الكعبةُ المعظمة "قبلةَ الدنيا" كلها. فمن أراد مزيدا من التفصيل فنحيله إلى مقال "أمّ القرى، وسطية المكان وخصوصية العمران".

أما الدكتور محمد السقا عيد -وهو الدكتور الأخصائي في طب العيون- فيخرج بنا في رحلة مثيرة إلى عالم الزواحف، ليطلعنا على عجائب صنع الخالق في عيون هذه الكائنات من دقة في الخلق، وإبداع في التكوين، وتكيّف مع البيئة محير. المزيد من التفاصيل في مقال "عيون الزواحف.. الهندسة الحكيمة".

في مقال "النوستاليجا" يكشف لنا الدكتور خالد صلاح حنفي محمود عن خبايا مفهوم الحنين إلى الماضي، ما هو؟ وكيف تفاعل معه الإنسان في تجربته على هذا الكوكب من الناحية الأدبية والفنية والإنسانية؟ ثم هل الاستغراق في الماضي مؤشر سلبي أم إيجابي؟ إن المقال سيفاجئكم بمعطيات لافتة في هذه النقطة بالتحديد.

هل العلم والأدب يتناقضان؟ تساؤل يطرحه الدكتور ناصر أحمد سنه ببراعة ويناقشه بعمق. حسبك أن تخصص بعض الوقت لمقال "جناحا العروج: العلم والأدب"، لتنال متعة معرفية فريدة. أما إذا كنت ممن يعاني من إقامة توازن بين الواقعية والمثالية في حياتك الزوجية، فإليك بمقال "السعادة الزوجية بين الواقع والمثال" للدكتور علي مدني رضوان الخطيب، فعلى الأغلب ستحصل على مفاتيح تساعدك على إقامة ذلك التوازن.

لا أشك في أنك ستندهش عندما تعلم أن العالم الأندلسي الكبير أبو القاسم الزهراوي هو أول من وضع أساس الهندسة الوراثية. كيف كان ذلك؟ وإلى أي مدى وصلت تجارب الهندسة الوراثية اليوم، وبالأخص في عالم الفواكه؟ ثم كيف يبدو المستقبل في ظل التطورات الجبارة التي تحدث في هذا المجال؟ تجدون الإجابة على هذه التساؤلات في مقال "ثمرات الهندسة الوراثية" للباحث محمد زغلول عامر.

وتأكيدًا على البعد الإنساني في الإسلام يأتي مقال "التصوف وبناء التسامح" انطلاقًا من التجربة المغربية للكاتب سعيد بوعطية، نموذجًا فريدًا في الموضوع. فكيف كانت التجربة الصوفية تجليًا من تجليات التسامح الإسلامي؟ هذا ما ستجدونه في المقال.

صدقًا إن كتابة افتتاحية للتعريف بهذا العدد الدسم ليس بالأمر السهل. فكيف لا نذكر قصيدة الشاعر الفذ العربي السيد عمران "لو رُفِع الحجاب"، أو "الدلافين مصدر إبداع وابتكار" للكاتب المبدع نور الدين صواش، أو الدكتور خالد فهمي في "تحصيل الرَّوح والريحان"؟ لكن هذا غَيْض من فيض لما يحتويه العدد من مقالات تُمتع العقل وتبهج القلب، وبالله التوفيق. ■

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

البارحة واليوم / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
النزلة الوافدة / أ.د. أمير السيد أحمد ذكي (علوم)	٥
أم القرى وسطية المكان وخصوصية العمران / أ.د. يحيى وزيري (قضايا فكرية)	٨
عيون الزواحف.. الهندسة الحكيمة / د. محمد السقا عيد (علوم)	١١
النوستالجيا الحنين إلى الماضي / د. خالد صلاح حنفي محمود (قضايا فكرية)	١٤
جناحا العروج: العلم والأدب / د. ناصر أحمد سنه (قضايا فكرية)	١٨
شجرة الأبنوس / د. طارق أبو الخير (قصة)	٢١
السعادة الزوجية بين الواقع والمثال / د. علي مدني رضوان الخطيب (تربية)	٢٤
ثمرات الهندسة الوراثية / محمد زغلول عامر (علوم)	٢٨
النار تحرقني أينما وقعتْ! / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
التصوف وبناء التسامح التجربة المغربية نموذجًا / سعيد بوعيطة (قضايا فكرية)	٣٤
الأجوبة المسكتة / صلاح عبد الستار الشهاوي (أدب)	٣٨
مملكة النباتات / محمد زين العابدين (علوم)	٤٢
الريف مصدر إلهام الشعراء / نور سليمان أحمد (أدب)	٤٦
الذهب الأحمر: الزعفران / سريعة سليم حديد (علوم)	٤٩
حنين البقاع / أ.د. عبد العظيم أحمد (أدب)	٥٢
تحصيل الرَّوْح والريحان قراءة في "معراج الرُّوح: الصلاة" / د. خالد فهمي (تحليل كتاب)	٥٤
لو رُفِع الحجاب / العربي السيد عمران (شعر)	٥٧
السعادة والسلام الداخلي / أ.د. شريف علي تاكالان (قضايا فكرية)	٥٨
الدلافين مصدر إبداع وابتكار / نور الدين صواش (محطات علمية)	٦١

البارحة واليوم

لقد كان عالمنا يومًا، معرضًا من الجمال لا تَشبع العينُ من مشاهدته بألوانه وأنواره وأعماقه العجيبة، وموطنًا لثقافة فريدة وحضارة عظيمة. لقد كانت الحياة في هذه الديار دافئة ناعمة، تخلب الألباب وتجتذب القلوب، وتَشدُّ إليها الرِّحالَ من كل أرجاء الأرض قوافلُ كقوافل الحجيج

للتنزه في سفوحها الجميلة. كان أولئك الذين لم يحظوا برؤيتها من قبل، يعيشون بهجة المفاجأة ونشوة الانبهار في كل بقعة أو زاوية يحلوُّن فيها، أما من نالوا حظوة التعرف على آثار عظمتها وبدائع جَمالها من قبل، فقد كانوا لا يريدون مبارحة هذا الجو الآسر أبدًا.

في هذا العالم، كانت المدن والقرى مترابطة بوشائج مادية ومعنوية معًا، وكانت المعمورة كلها بقراها وبلداتها وحواضرها كمدينة كبيرة واحدة. كان كافة أبناء هذا المجتمع المثالي يمتازون بنقاء أخلاقي عميق، ووعي ديني قوي، ووحدة وطنية لا تتزعزع، كانوا ينعَمون بسلام وسعادة لا توصف، كانت الحياة في كل ركن من هذه الديار خالية من أي نزاع أو صدام أو اعتداء أو اقتتال، مما دفع المنصفين من الرحالة الأجانب إلى أن يفسروا ذلك بأن يد الإعجاز هي التي تحرك خيوط الحياة فيها.

كان سكان هذه الديار يفيضون بمشاعر الخير والجمال؛ يبتغون البر والإحسان لبعضهم، ويرون أنفسهم أمناء على شرف بعضهم البعض وسمعتهم وكرامتهم، يبدون أقصى درجات النبل والحساسية من أجل سعادة المجتمع بصدق خالص ينبعث من أعماق قلوبهم. كان ذوو المال والثراء قد سخَّروا إمكاناتهم لخدمة الدولة والمجتمع، وكان الفقراء لا يُضطرون إلى إذلال أنفسهم أو إهدار كرامتهم بالطلب أو السؤال. أجل، لا يُضطر المعوزون إلى ذل السؤال، ولا يقع الميسورون في إثم المنّ والافتخار بالنوال.

كانت أصناف الخير والإحسان والجمال هنا قد تحولت إلى مؤسسات، وكان أبناء هذه الديار رموزًا للعناية الربانية، يشملون الفقير واليتيم والمسكين بالرعاية في مناحي الحياة كلها، ويمدون أيديهم إلى العليل والبائس وكل من تقطعت به السبل. حسبُك أن تلقي نظرة خاطفة على المساجد العريقة والمدارس العتيقة والمشافي القديمة والتكايا والزوايا، التي يشير كل واحد منها إلى معان دقيقة وأعماق روحية بأناقته الأخاذة ورقته البديعة. فأكرِمْ بها من بيان يفوق كل بيان في التعبير عن عمق الفكر ورحابة الرحمة التي بلغها أجدادنا الأماجد!

ليتنا أدركنا ذلك العالم الجميل، ليتنا أدركناه عندما كانت أنظمته الفريدة تعمل بأداء باهر، قبل أن تعصف برياضه العواصف، وتذبل أزهاره، وتحترق غاباته، وتجرف السيول مزارعه.

ليتنا استطعنا أن ننقل تلك الأمجاد إلى عصرنا -ولو إلى المتاحف- دون أن نفسدها أو نضيعها أو نعرّضها لظلم من لا يعرف قدرها! هيهات، لقد ضاعت تلك الكنوز التاريخية العظيمة، واندثرت معارض الجمال البديعة التي تعدُّ كل قطعة منها متحفًا مفتوحًا وحده، وذلك على يد جيل احتقرها وقلل من شأنها ولم يقدِّرها حق قدرها.

هذه الحضارة العظيمة، التي صارت -حتى- مقابرها لسانًا يعبر عن رقي فنونها بفصاحة بليغة، وغصنًا زاهي الألوان يمتد إلى عالم الماوراء، لا تزال هذه الحضارة تنبض بحضور باهر وأثر ساحر في نفوس أصحاب القلوب الحية والوجدان اليقظ، بخرائبها التي تنافس المدن العامرة، ونقوشها التي تضاهي المكتبات الثرية، ومقابرها التي تُسابق المتاحف الضخمة في إشعاعها.

اليوم، ينظر كثير من الناس إلى بقايا تلك الحضارة العظيمة على أنها أَشْلاء جثة هامدة متناثرة -فليفرح من يتوهم أنه لن يموت ولن يتلاشى أبدًا!- الحضارات، مثل البشر الراقدين في القبور، فانية. تولد واحدة تلو الأخرى، وتحيا واحدة بعد أخرى، وترحل واحدة تلو الأخرى. لا يمكن منع القادم من القدوم، ولا إيقاف الراحل من الرحيل.

بيد أن الحضارات التي تنبع من فكرة الخير والجمال، وتنمو بمعاني الخلود والماوراء، إنما هي هذه الحضارات التي تصبح مصدر إلهام للأجيال القادمة، كما تبقى مناظر بديعة يقبل على مطالعتها أهل السماء والملأ الأعلى. أفلا نرى أشعة النجوم التي تبتعد عنا ملايين السنين؟ بل نراها حتى بعد أن تنطفئ، كما تراها الأجيال القادمة، وتظل تنعكس أنوارها على مدى آلاف السنين القادمة. وهكذا، تظل هذه الحضارة التي نشأت

وتطورت في بعدٍ أخروي، مشرقة ومشعة، مهما ابتعدت بها الأزمان وتقادمت بها العصور، يُقبل أهل السماء عليها يتأملون بدائعها ويطالعون دقائقها كما يطالع القارئ كتابًا مشرقًا جميلاً، وتتردد أنغامها عند أبواب السماء كأحلى ما تكون الأنغام.

إن تجاهل هذه العظمة، ومحاولة مقارنة شموع زائفة لا يعلم أحد ماهيتها وكم ستظل مضيئة، مع فترة عظيمة من الحضارة والإشعاع، بل وتجاوز ذلك إلى تصوير الشموع على أنها نجوم، والنجوم على أنها شموع.. إنَّ ذلك إن لم يكن نوعًا من الحمق والضلال، فإنه عداءٌ صارخٌ للتاريخ.

ليتنا استطعنا أن نُري هؤلاء الذين بَخَسوا الأمجاد قدرها حقيقة تلك الأعمار المباركة التي عاشها أهل تلك الحقبة العظيمة. لقد انساب الزمن نحو السماء في سيمفونية من السعادة، وتدفقت الفصول والأعوام بنشوة غامرة، حيث سبحت الحياة ببهجتها على أمواج الفصول والأعوام، زاخرة بأجمل الألوان والأنغام. وعمق السكينة والطمأنينة الذي فاض من قلب إلى قلب وانتقل من روح إلى روح، كان يحوِّل هذا الجمال إلى لغة فريدة، وتركيب عجيب، ونمط متفرد، وأسلوب بديع.. وصولاً إلى قمة الكمال، ومن ثم ملامسة هذا الكمال أفق الجماليات المجردة السامية.

في الواقع، لم نعرف تلك الحضارة العظيمة إلا بعد أن تحولت إلى كومة من الأنقاض، نعم، بعدما أصابتها زلازل متتالية. والحال أننا متساوون مع هؤلاء الجاحدين في الحرمان من رؤية تلك العظمة. ليتنا أدركنا ذلك العالم الجميل، ليتنا أدركناه عندما كانت أنظمته الفريدة تعمل بأداء باهر، قبل أن تَعصفَ برياضه العواصفُ، وتَذبلَ أزهارُه، وتحترقَ غاباتُه، وتَجرفَ السيولُ مزارعَه. نعم، قبل أن تَنفق جيادُه الأصيلة، وينخدع فرسانُه بفتنة السلطانة "مَهْلِيقَا"[1]، قبل أن يُعدَّ الجهاد بغيًا، ويُسقى الأبطالُ خمرًا فيترنحون سُكرًا، قبل أن تُرفَع طبولُ النصر إلى المتاحف، وتَخمدَ هتافاتُ الأبطال، قبل أن تُغمَض الأعينُ على الحقيقة، وتَغيبَ الشمسُ ويخيِّم الظلام على كل مكان، وتَجِفَّ الجداولُ، وتغورَ العيونُ، قبل أن تَصمتَ الأناشيدُ الإلهية وتختفي الأنفاس الربانية، قبل أن تتحول ربوعنا إلى مقابر وتتحول المقابر إلى مزابل.. باختصار، لم نسعد، لا نحن ولا هؤلاء البؤساء، برؤية ذلك العالم عندما كان كل شيء فيه على أفضل ما يكون جمالاً وكمالاً وبهاءً.

ترى، هل كان أبطال الأمس الذين حلَّقوا بالأمة من ذروة إلى أخرى، يتوقعون أن يحلَّ بأحفادهم ما حلَّ من كوارث متتابعة؟ أبدًا، بل ما كانوا يتصورون تلك المأساة حتى في أعمق أحلامهم. كيف، وقد كانوا يملكون من القوة والإيمان ما يمكِّنهم من منازلة العالم ومقارعة الجبابرة والقبض على مقاليد الأرض كافة. ولكن ها هم أولاء، وها هي ذكرياتهم الحلوة والمريرة، تعيش معنا في كل حين.

الكل سيرحل حين يحين موعد رحيله. إنه لمن الوهم تَصوُّر سيادة خالدة لتلال صغيرة في عالم تفنى فيه الجبال الشامخة. نعم، كل آتٍ راحل لا محالة، ولكن البعض سيرحلون وقد تركوا في قلوبنا أحلى الذكريات -كأسلافنا الأمجاد- والبعض سيرحلون ويبقون ذكريات ملوثة في ضمير الأمة، تذكرنا بما كان وما يمكن أن يكون لو لم تضعف الهمم وتخبو العزائم. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد:١٣١ (ديسمبر ١٩٨٩)، تحت عنوان "Dün ve Bugün". الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهامش

(١) إشارة إلى قصيدة "سبعة فتيان عشقوا السلطانة مَهْلِيقَا" للشاعر التركي الشهير "يحيى كمال بياتلي" (١٨٨٤-١٩٥٨م). السلطانة مهليقا حسناء جميلة تعيش وراء جبل قاف، وبمجرد دخولها في حلم فتى فإنه يقع في حبها، ولا يشفى من ذلك الحب أبدًا، وينطلق إلى جبل قاف بحثًا عنها. إنه حب يائس. تحكي القصيدة قصة سبعة فتيان رحلوا إلى ما وراء جبل قاف، بحثًا عن أميرتهم وأملاً في اللقاء بها، في إشارة إلى المثقفين العثمانيين الذين انبهروا بالحضارة الغربية في أواخر الدولة العثمانية، وهاموا بها ورحلوا إليها، وآمنوا بأن المخرج من التخلف الذي وقعت فيه الأمة هو التماهي في الغرب بالكامل. والأميرة مهليقا تشير إلى تلك الرمزية.

أ.د. أمير السيد أحمد ذكي*

النزلة الوافدة

أخذت النزلة الوافدة الشكل الوبائي الذي فعله فيروس كورونا، فتأتي هذه المرة شرسة مؤلمة سريعة المضاعفات، ولم تعد الأعراض المتعارف عليها من رشح وزكام تصيب المريض وتنبهه ليبدأ الراحة ورحلة العلاج، وإنما تهاجم مريضها مباشرة بأعراض حادة تبدأ بارتفاع مفاجئ وشديد في درجة الحرارة، وانهيار كامل في القوى الجسمانية، مع وجود فيروس يستقر بالحلق محدثًا التهابات شديدة في الصدر، وآلامًا مبرحة بالعظام.

فكيف نواجه هذا الفيروس الجديد؟ وكيف نتقي شر آلام ومتاعب فيروسات النزلة الوافدة التي أصبحت تغير من أشكالها وأساليبها كل عام؟ وماذا تقول الأبحاث الطبية العالمية عن العلاجات الجديدة التي خرجت لمواجهة خطر هذا الفيروس؟

يرجع وباء النزلة الوافدة إلى شدة برودة الجو، وتناول الناس الأدوية الكيميائية بصفة مستمرة ضد هذا الفيروس المراوغ، مما أدى إلى تَحوُّره في صورة أخرى وبائية. وهناك اختلاف بين النزلة الوافدة بأنواعها ونزلات البرد، ويجب التفرقة بين أعراضها؛ فالنزلة الوافدة دائمًا تأتي في صورة ارتفاع درجة حرارة الجسم، التي تصل إلى ٤٠ درجة، وتستمر لمدة ٤٨ ساعة تقريبًا، ثم تنخفض خلال الأيام الأربعة التالية، ويصاحبها رعشة شديدة بالعضلات وآلام في العظام، وصداع وكحة جافة ومؤلمة، بالإضافة إلى آلام بالحلق مع الشعور بدوارٍ

وإجهاد شديد.. وهذه الأعراض عادة ما تنتهي بعد خمسة أيام إذا لم تحدث مضاعفات.

أما نزلات البرد فتظهر أعراضها ببطء عن أعراض النزلة الوافدة، ويكون ارتفاع درجة الحرارة أقل، والكحة مصحوبة ببلغم، ولا يصاحب ذلك صداع أو آلام في العضلات والعظام أو الضعف الشديد. ويميز نزلات البرد وجود الزكام والعطس، وهما نادرًا ما يصاحبان النزلة الوافدة التي تعتبر مرضًا حادًّا يصيب الجهاز التنفسي بسبب عدة فيروسات دائمة التغير، من أهمها فيروس (أ، ب، ج)، وتعتبر مجموعة الفيروس (أ) أهمها وأخطرها؛ لأن تلك المجموعة -بالذات- هي المسؤولة عن حدوث الوبائيات التي تنتشر في العالم.

ابتكر العلماء وسيلة تشبه الإنذار المبكر لحدوث الغزو قبل ظهور الأعراض، للإسراع نحو الأدوية المقاومة ضده، مع الوسائل المنزلية المتاحة. وهناك إحدى الوسائل التي يجرى اختبارها تتمثل في شريط صغير، عند لمسه باللسان كل صباح أو مساء يتخذ لونًا محددًا، في وجود أو مع بداية غزو فيروس النزلة الوافدة، ومن ثم الاستعداد لمقاومته لتفادي الأعراض التي يسببها.

كما اكتشف العلماء حقائق مهمة، من بينها أنه كلما بدأت المعالجة مبكرًا تكون النتيجة أفضل، فالجسم عندئذ سيتعرض لكمية أقل من الفيروسات قبل تكاثرها. لذا فالطريقة المثالية لفاعلية الأدوية المقاومة للفيروس، تكون باختبارات فورية تنذر بوجود الغزو قبل ظهور أعراضه، وذلك عندما يستكمل العلماء التجارب حول هذا الأسلوب الجديد.

من الاكتشافات الأخرى في عالم الصراع مع هذا العملاق النائم، وجود نوعين رئيسين لفيروساته، لكل منهما العديد من السلالات التي تم تصنيفها تحت أسم (أ، ب)، وهما يختلفان في بعض بروتيناتهما الداخلية، فضلاً عن نوع ثالث يحمل اسم (ج)، وهو لا يشكل خطرًا مثل الاثنين الآخرين. وبالإضافة إلى تباين هذين النوعين الخطيرين وآثار كل منهما، فهما يختلفان من الناحية الكيميائية ومدى انتشارهما؛ ففيروسات (ب) تُعدي البشر فقط، وتسبب أوبئة إقليمية محدودة، بينما تصيب أيضًا، فيروسات النزلة الوافدة من نوع (أ)، الخنازير والخيول وحيوانات الفقمة البحرية والحيتان والطيور.

والفيروسات الخطرة من نوع (أ) ربما تكون مسؤولة عن النزلة الوافدة الإسبانية التي اجتاحت العالم عام ١٩١٨م، وتسببت في وفاة ٢٠ مليون إنسان، وبعد الإسبانية ظهرت الآسيوية عام ١٩٥٧م، ثم الآتية من هونج كونج عام ١٩٦٨م، وفي عام ١٩٩٧م بدأت مسيرة فيروس النزلة الوافدة للدجاج الشهيرة.

من الغريب أن النزلة الوافدة للدجاج، قفز فيروسها من الدجاج إلى البشر مباشرة، وهي ظاهرة لم تحدث من قبل، أي إن الفيروس تعدى حاجز الاختلاف بين الطيور والثدييات ليصل مباشرة إلى الإنسان. ويرى بعض العلماء أن هذه الحالة تحتاج إلى الرقابة والوعي، من أجل اكتشاف مصدر الوباء مبكرًا.. فلم يعد الأمر مقصورًا على نقل العدوى من إنسان إلى آخر، بل ينبغي مراقبة الحيوانات والطيور المهاجرة، فهي قد تحمل مستودعًا على مدار السنة لفيروسات النزلة الوافدة من نوع (أ)، التي تنتقل منها إلى طيورنا الأليفة ثم إلى الإنسان، وقد يساعد الاكتشاف المبكر على تجنب حدوث مشكلة صحية كبيرة للبشر.

استدعت ظاهرة انتقال الوباء من الدجاج إلى الإنسان، ضرورة إعادة النظر فيما يسمى بحاجز الأنواع التي تفترض صعوبة انتقال سلالات النزلة الوافدة من نوع حيواني إلى آخر. فإذا أمكن فهم هذا الحاجز بصورة أفضل، فقد يستطيع العلماء سد الثغرات التي تسمح الآن لسلالة من الطيور والحيوانات، بتحدي

hiragate.com

واختراق هذا الحاجز وإحداث المرض للبشر.

اكتشف العلماء مؤخرًا، أن غزو فيروسات النزلة الوافدة يعتمد على نوع من الأنزيمات يساعد على تكاثرها وتزايد أخطارها، لذا ابتكروا عقارين يجري اختبارهما الآن، ويعتبران سلاحين في المقاومة والوقاية من العدوى إلى حد كبير، وتخفيف شدتها عند المعالجة فور الشعور بغزو الفيروس. وإذا كانت اللقاحات تحفز المناعة لمواجهة الغزو الفيروسي، فإن هذين العقارين متخصصان في مهاجمة الفيروس بصورة مباشرة، فهما يعيقان أنزيمًا خطيرًا يساهم بدور مهم في تكاثر الفيروس.

كما أن فعاليتهما تشمل النوعين (أ، ب)، علمًا بأن كل نوع منهما تخرج منه سلالات متعددة تظهر كل واحدة بتغيرات في جيناتها، الأمر الذي يجعل من لقاح ضد النزلة الوافدة غير فاعل ضد السلالة الجديدة، والتغير في بروتينات فيروسات النزلة الوافدة، يُصعِّب من مهمة ابتكار لقاح لجميع الأنواع.

الفيروسات الجديدة من النزلة الوافدة التي لم نسمع عنها من قبل، ظهرت كلها مع موجات البرد والصقيع الذي تشهده الآن بلاد العالم شديدة البرودة في الشتاء، كأوروبا وأمريكا والدول الإسكندنافية، وبعض دول الشرق الأوسط التي تقع في حوض البحر الأبيض المتوسط والبلاد القريبة منها، التي تأثرت بالصقيع والرياح الباردة القادمة من الدول سالفة الذكر. وإذا كانت الصيدليات قد قدمت العديد من أصناف الدواء والعقاقير الطبية والكيميائية، فإن طب الأعشاب بدأ يدخل ميدان المعركة ضد فيروسات النزلة الوافدة، مؤكدًا أنه يستطيع أن يواجهها بتوابعها ومتاعبها.

للنباتات الطبية دور فاعل في مواجهة فيروسات النزلة الوافدة، فهناك عدة علاجات في الطب الشعبي لمقاومة مسببات المرض وضعف قدرة الجهاز المناعي؛ منها أن يبادر المريض بتناول المشروبات الطبيعية الساخنة، وبصفة خاصة عصير الليمون الدافئ، ومشروب القرفة والزنجبيل والدار صيني والبردقوش، كما أن استخدام نباتات زيوت طيارة أو عطرية تحتوي على راتنج وأصماغ ومواد قلوية وجليكوسيدات، يساعد كثيرًا في

التغلب على نشاط فيروس النزلة الوافدة.

أما الأطفال فلهم وصفات خاصة، فما يستطيع أن يتحمله الكبير قد لا يتحمله الصغير ولا يصلح له، وربما يسبب له متاعب إضافية على متاعب النزلة الوافدة.. فاستخدام عصير الجزر بعد تحليته بالسكر أفضل علاج لسعال الأطفال مثلاً، ويمكن استخدام مزيج مكون من مطبوخ شرائح البصل الممزوجة بعسل النحل، وأيضًا استخدام مغلي الشوفان، والكاموميل، والتليو المضاف إليه عسل النحل بعد تصفيته كعلاج فعال لنزلات البرد والقضاء على سعال الأطفال.

للوقاية، يعتبر مغلي جذور نبات الجنسين وحبة البركة والبابونج والسفرجل المحلي بعسل النحل وغذاء ملكات النحل، من الأعشاب التي تزيد مناعة الجسم لمواجهة أمراض البرد والنزلة الوافدة، وكذلك الإكثار من تناول المشروبات الدافئة سالفة الذكر، التي تزيد من المقاومة الطبيعية لجسم الإنسان ضد الإصابة بالنزلة الوافدة والنزلات الشعبية. ■

(*) أستاذ ورئيس قسم جراحة العظام والتقويم سابقًا، كلية الطب بجامعة الإسكندرية / مصر.

المراجع

(1) Alluwaimi، A.M. (2023) Identification of pyrogenic components of Influenza virus using reassortants of differing pyrogenicity ph. D. thesis . University of Birmingham، UK.

(2) Kilbourne، E.D. (2023) Influenza. Plenum Medical Book Company. New York.

(3) Thompson، T. (2023) Annuals of Influenza of epidemic catarrhal fever in Great BRITIAN from 1515 to 1837. Sydenham Society London.

hiragate.com

أ.د. يحيى وزيري*

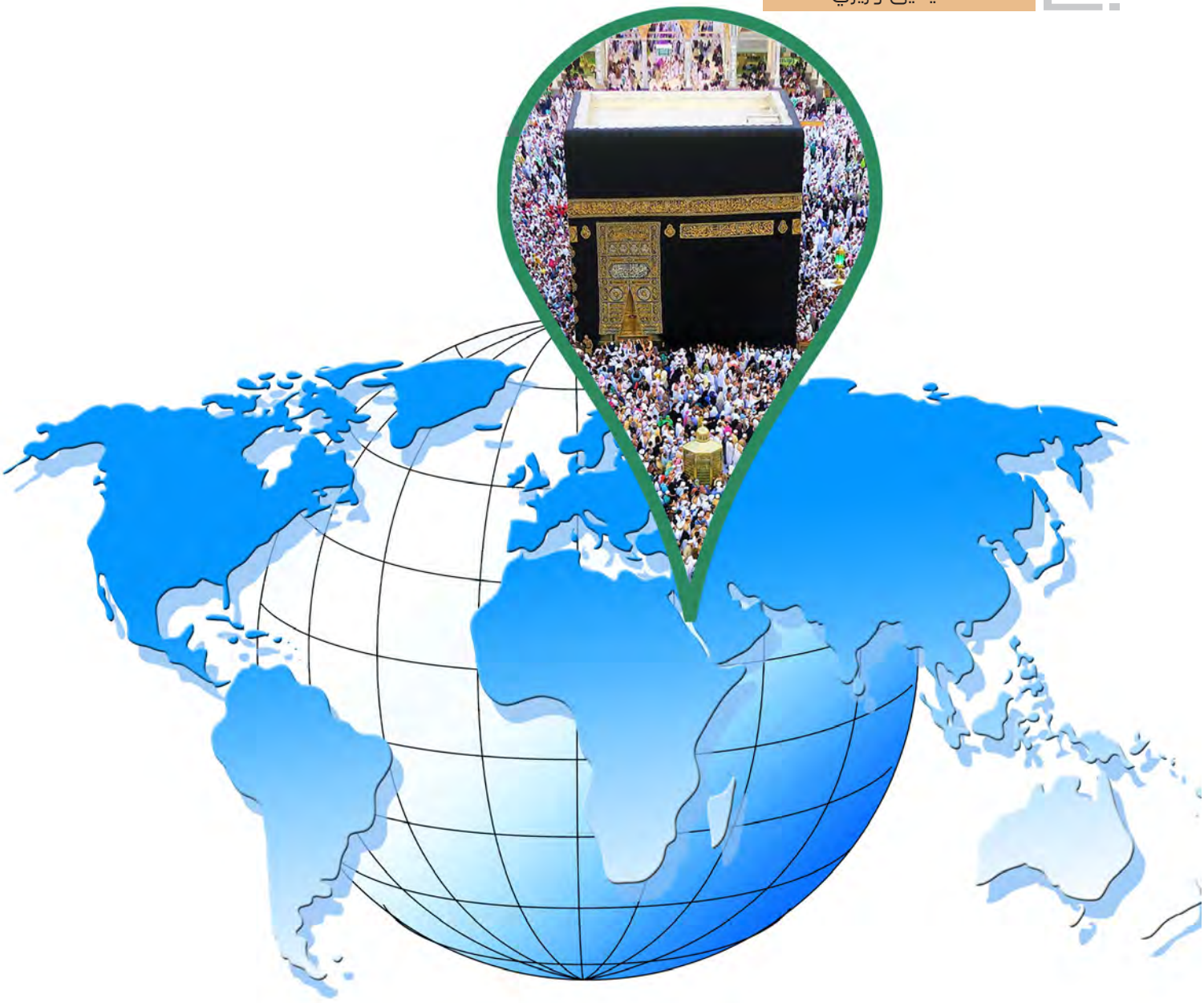

أم القرى وسطية المكان وخصوصية العمران

مكة المكرمة أقدس مدينة عند المسلمين، وقد وصفت في موضعين في القرآن الكريم بأنها "أم القرى"، حيث يقول المولى ﷻ: ﴿وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام:٩٢).

كما أن الله ﷻ قد وضع أول بيت للناس -وهو الكعبة المشرفة- في بكة (مكة) تكريمًا وتشريفًا لها، حيث يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ

لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦)، وبناء على ذلك اختارها الله لتكون قبلة المسلمين في الصلاة، ومكان اجتماعهم لأداء مناسك الحج والعمرة.

وسطية مكة عند العلماء القدامى

ذهب عدد من علماء اللغة إلى أن سبب تسمية مكة بهذا الاسم هو أنها وسط الأرض، يقول الزبيدي في كتابه "تاج العروس": "وقال المصنّف في البصائر، والأصبهاني في المفردات: وقيل إن مكة مأخوذة من المُكاكة، وهي اللب والمخ الذي في وسط العَظْم، سمّيتْ بها لأنها وسط الدنيا ولبها وخالصُها.

وفي ثنايا حديث علماء التفسير قديمًا عن فضل مكة على سائر البلدان، جاءت الإشارة إلى أن مكة المكرمة تقع في وسط العالم، يقول الإمام القرطبي: "قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)، المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطًا، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، والوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها".

ومن ذلك أيضًا ما قاله أبو حيان الأندلسي في تفسيره: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام:٩٢)، أم القرى مكة وسميت بذلك لأنها منشأ الدين، ودحو الأرض منها، ولأنها وسط الأرض، ولكونها قبلة وموضع الحج ومكان أول بيت وضع للناس".

وسطية مكة في الدراسات الحديثة

توجد دراسات علمية هامة أجريت حول توسط مكة للبابسة؛ الدراسة الأولى أجريت في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، حيث لاحظ الأستاذ الدكتور "حسين كمال الدين" رحمه الله -الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا في مصر والرياض- تَمرْكُز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، أي لاحظ أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية، موزعة حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزًا لليابسة.

أجريت دراسات حول توسط مكة لليابسة؛ حيث لوحظ تمَرْكُز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات، وأن اليابسة على سطح الكرة الأرضية، موزعة حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا.

وبالرغم من هذه الملاحظة العلمية الهامة، فإن الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين لم يقدم الدليل العلمي عن طريق القياسات العلمية الدقيقة، التي تثبت هذه الملاحظة بشكل قطعي في ذلك الوقت، ولكن يرجع فضل إبراز هذا الاكتشاف الرائع في العصر الحديث، لهذا العالم المسلم رحمه الله.

والدراسة الثانية قام بها الأستاذ الدكتور "مسلم شلتوت" في التسعينيات من القرن العشرين، وقد كان يعمل أستاذًا لبحوث الشمس والفضاء بمعهد البحوث الفلكية والجيوفيزيائية بمصر. اقتصرت دراسته على استخدام برنامج أُعِدّ خصيصًا لذلك باستخدام الحاسب الآلي، لحساب المسافة بين مكة المكرمة ونقاط قياس محددة على أطراف اليابسة بالنسبة للعالمين القديم والجديد.

وأما الدراسة العلمية الثالثة فهي لكاتب المقال، وقد اعتمدت على قياسات دقيقة باستخدام برنامج "جوجل إيرث للمحترفين" (Google Earth pro)، الذي يستخدم صور الأقمار الصناعية الحقيقية للكرة الأرضية، كما أن به إمكانية عمل قياسات دقيقة للمسافات القوسية والاتجاهات بين أي نقطتين على سطح الكرة الأرضية.

أوضحت نتائج القياسات توسط مكة المكرمة للحدود المختلفة ليابس القارات السبع المعروفة.. وعند إجراء كل القياسات السابقة على بعض المواقع والمدن الأخرى الهامة، فقد أوضحت الدراسات المقارنة بينها وبين موقع مكة، أن أيًّا من هذه المواقع، لم يحقق ما حققه موقع مكة المتميز من قياسات سابقة.

خصوصيات عمران أرض الله الحرام

عندما نذكر "أرض الله الحرام" فإننا نعني بذلك مساحات

hiragate.com

محددة من مكة المكرمة (وينطبق ذلك أيضًا على المدينة المنورة)، وذلك طبقًا لما ورد ذكره في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

لقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة: "إن هذا البلدَ حرَّمَه الله يومَ خلَق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحُرْمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحد قبلي، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعةً من نهار، فهو حرامٌ بحُرْمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شَوْكُه، ولا يُنفَّر صَيْدُه، ولا يَلتقِط إلا مَن عرَّفها، ولا يُخْتَلى خَلاَها". فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذْخِرَ فإنه لِقَيْنِهِم ولِبُيُوتِهم، فقال: "إلا الإذْخِرَ" (رواه البخاري).

فالحديث الشريف ينهى بوضوح عن قطع أشجار الحرم ونباته وإن كان شوكًا، كما ينهى عن تنفير صيد الحرم، فما بالنا بصيده، وهو ما يشير إلى أهمية المحافظة على البيئة الطبيعية لمكة المكرمة بكل عناصرها النباتية والحيوانية.. ويستثني الحديث النبوي من ذلك، نبات الإذْخِر حيث كان يستعمل في تغطية أسقف البيوت.

وجدير بالذكر هنا أن نوضح أن الرسول ﷺ قد حرّم المدينة المنورة، وقرر حدود الأرض الحرام بها؛ فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: "المدينة حَرَمٌ من كذا إلى كذا، لا يُقطَع شجرُها، ولا يُحدَث فيها حدَثٌ، مَن أحدَثَ حدَثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين" (رواه البخاري)، والحَدَث: الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتادٍ، ولا معروف في السنة.

كما أن علماء المسلمين أوجبوا إيقاع عقوبة على من يقطع شجر الحرم، قال الواقدي: لما أرادت قريش البنيان، قالوا لقصي: كيف نصنع بشجر الحرم؟ فنهاهم وحذرهم في قطعها، وخوفهم من العقوبة في ذلك، فكان أحدهم يحوق بالبنيان حول الشجرة حتى تحصل في منزله، قال: وأول من رخص في قطع شجر الحرم في البنيان، عبد الله بن الزبير حين ابتنى دورًا بقعيقعان (جبل بمكة)، لكنه جعل دية كل شجرة بقرة. وكان يروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قطع دوحة كانت في دار أسد بن عبد العزى، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، فقطعها ﷺ ووادها (دفع ديتها) ببقرة".

وقال الإمام النووي: اتفق العلماء على تحريم قطع أشجار مكة التي لا يستنبتها الآدميون في العادة، وعلى تحريم قطع خلاها وهو الرطب من الكلأ، واختلفوا في ضمان الشجر إذا قطع؛ فقال مالك: يأثم ولا فدية، وقال الشافعي، وأبو حنيفة: عليه الفدية. وأوجب أبو حنيفة القيمة، والشافعي في الكبيرة بقرة، والصغيرة شاة، وكذا جاء عن ابن عباس. وبذلك يتضح لنا سبق المنهج الإسلامي في حماية البيئة الطبيعية للحرمين الشريفين بصفة خاصة، وأهمية تطبيق ذلك بالنسبة لباقي المدن بصفة عامة.. وذلك فإن المنهج الإسلامي قد سبق ما يعرف اليوم بنظام "المحميات الطبيعية"، بتحريم الصيد أو قطع الأشجار أو تنفير الحيوان.

الخلاصة

إن توسط مكة المكرمة لحدود اليابسة المختلفة، يعتبر من تجليات اسم الله "العدل"، حيث اختار مكان الكعبة المشرفة بمكة المكرمة في موضع يتوسط يابسة الأرض، لأن هذا البيت وُضع لكل الناس قبلة للصلاة ومكانًا للحج والعمرة، فهو بمثابة "قبلة الدنيا".

هذا بالنسبة لوسطية المكان، كما أن الله ﷻ جعل لأمِّ القرى خصوصية في أعمال البناء والتعمير والعمران، حيث الحفاظ على البيئة الطبيعية للحرم المكي، بتحريم قطع الشجر والشوك والخلا، ويستثنى من ذلك نبات الإذْخِر.

إن استخدام مصطلح "الأرض الحرام"، هو مصطلح شرعي تتعلق به أحكام وواجبات شرعية، ولكن في نفس الوقت يسهم -بطريقة مباشرة- في الحفاظ على البيئة الطبيعية للحرمين الشريفين، وكذلك الارتقاء بالتربية البيئية للمسلمين زوار بيت الله الحرام، وتهذيبًا لسلوكياتهم في التعامل مع البيئة النباتية والحيوانية لأرض الله الحرام، مما ينعكس على سلوكهم بصفة عامة في باقي بقاع الأرض المختلفة. ■

(*) أستاذ ورئيس قسم العمارة بمعهد الطيران / مصر.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

عيون الزواحف
الهندسة الحكيمة

تعدّ العين من أعجب الأعضاء وأدقها في جسم الإنسان وجميع الكائنات الحية. وتختلف أوضاع العيون في الأجسام باختلاف أجناس المخلوقات. فعيون الإنسان جُعلت في وضعها المعروف ليبصر بها ما أمامه، وعيون بعض الزواحف مركبة في رؤوسها على ساق متحركة تستطيع رفعها وخفضها بما يتناسب مع وضع المرئيات.

ومن خلال هذه السطور، سنقوم بالنظر إلى دقة الخالق العظيمة، وروعة الهندسة الحكيمة، وعجائب الصنعة في عيون بعض الزواحف.

الحدقة

إذا نظرنا إلى شكل حدقة العين في الزواحف، وجدناها تختلف اختلافًا كبيرًا بين نوع وآخر، ففي الزواحف التي تنشط في النهار تكون الحدقة دائرية، أما الزواحف الليلية فلها حدقة مستطيلة، وذلك من حسن التقدير.

فالحدقة هي الثقب الذي يعبر منه النور إلى داخل العين، تضيق وتتسع حسب درجة الإضاءة؛ فإذا كان الضوء باهتًا انفتحت، وإذا كان باهرًا انقبضت حتى لا يدخل العين إلا ما يلزم من الضوء لرؤية أفضل. وانقباض الحدقة مهم أيضًا لكي لا يؤذي النور الباهر عصيات الشبكية وهي نهايات عصبية حساسة تمكن من الإبصار في الضوء الخافت أو في الليل. وبما أن الزواحف بخلاف الطيور والثدييات، حيوانات ذات

دم بارد لا تنشط إلا في الحر، ولا ترتفع حرارتها إلا إذا اصطلت بأشعة الشمس التي تتعرض لها طويلاً لخزن الحرارة. ولما كان الشكل المستطيل أنسب من المستدير لتضييق الحدقة ولحد كمية النور الداخلة، فقد جعله الخالق في الزواحف الليلية.

ومن أغرب أشكال الحدقات عند الزواحف، تلك التي عند وزغ "الجيكو"، وعند بعض ثعابين الأشجار.

أما وزغ "الجيكو" فله حدقة بشكل شق عمودي، به فتحات دقيقة مستديرة، والصور المتفرقة المتكونة عبر كل فتحة تجتمع على قاع العين، لتكون صورة واحدة أوضح من تلك التي تتكون لو كانت هناك فتحة واحدة مساحتها مجموع مساحات الفتحات الدقيقة، وبهذه الكيفية يحافظ الوزغ على حدة إبصاره حتى لو قلل إلى حد بعيد كميةَ النور الداخلة عبر البؤبؤ.

وأما ثعابين الشجرة فإن لبعضها حدقات مستطيلة أفقيًّا في شكل قفل، وهذا الشكل في غاية الإبداع، أوسع فتحتي القفل واقعة في الجانب الخارجي من العين، بحيث تكون هي وحفرة الخطم الجانبية وقاع العين على خط مستقيم واحد، مما يزيد مجال الرؤية.

وإذا نظرت إلى الحيّات رأيتها تحدق دائمًا تحديقًا منوِّمًا، ويرجع ذلك إلى أنها لا تملك أجفانًا، لكن الخالق جعل على سطح مقلتها قشورًا صلبة شفافة كأنها العدسات البلاستيكية اللاصقة، تغطيها لتقيها أذى الغبار والأعواد أثناء سعيها على الأرض أو انسيابها بين أغصان الشجر.

ومن العجب أن الحية إذا انسلخت من غشائها لتجديده، تتخلق لها عدسات جديدة مكان العدسات

البالية التي تطرح مع الغشاء القديم.

وهناك أنواع من السحالي جهزها الخالق بنظارات شفافة كالتي عند الثعابين، ووهبها لسانًا طويلاً تستعمله لتنظيفها.. ومن السحالي ما يملك جفنين معهما غشاء شفاف رامش يقي العين من شدة الحر والضوء، ومنها ما له جفنان، جفن أعلى وجفن أسفل يحتوي في وسطه على شباك شفاف. وتتكيف الغدد الدمعية بمقتضى حاجة الزواحف، فالحيات -بخلاف الزواحف الأخرى- لها غدد دمعية ضامرة أو معدومة تمامًا، بما أن الخالق كفاها مؤونة تنظيف العين بأن جعل لها تلك القشرة الشفافة.

أما سلاحف البحر، فلها غدد دمعية عظيمة، لكن دون قناة دمعية تصرف الدمع من الأنف كما عند التماسيح والسحالي وعند الإنسان، لذلك ترى أعينها تفيض من الدمع. وقد ظلت هذه الخاصة تحير العلماء إلى أن تبينوا

hiragate.com

أخيرًا، أن سلحفاة البحر تتخلص في دمعها من كميات كبيرة من الملح تزيد زيادة مفرطة عن حاجة جسمها.

الحرباء

تشتهر الحرباء بقدرتها الرهيبة على تغيير لونها، كما أن البارئ سبحانه خلقها بطيئة الحركة، فأعطاها مع القدرة على التلون والسكون، عينين بارزتين كبيرتين تدوران إلى كل جهة من الجهات ليتسع مجال رؤيتها. ويغطي الجفن مقلة العين بأكملها باستثناء فتحة صغيرة فقط هي التي تسمح لها بالرؤية. وأما العجيب فهو أن الحرباء يمكنها توجيه كل عين على حدة إلى ناحية مختلفة عن الأخرى بشكل مستقل، بالإضافة إلى القدرة على تحريك كل عين على حدة. فتستطيع أن ترصد كل ما يحيط بها في زاوية ١٨٠ درجة عموديًّا و٩٠ درجة أفقيًّا

دون أن تتحرك قيد شعرة، وهذه لعمري قدرة مدهشة لا يدانيها فيها أي حيوان.

وإذا لمحت عين من العينين فريستها، تأبرت العينان معًا لتحديد موقعها، بينما يدور الرأس في اتجاهها بحيث يكون في متناول لسان الحرباء الطويل اللزج، الذى ينطلق في ربع ثانية نحو الفريسة، فيخطفها ويرتد بمنتهى السرعة إلى داخل الفم.

الوزغ ورقي الذيل

يملك الوزغ ورقي الذيل عينين سيرياليتين جميلتين، مقلة العين رأسية، وعليها ثقوب تتسع في الليل لتسمح لهذه الزواحف بالتقاط الضوء بأكبر قدر ممكن. تحوي هذه العيون خلايا أكثر حساسية للضوء من العين البشرية، حيث تمكنهم من الرؤية الليلية وكذلك تمكنهم من رؤية الألوان في الليل.

الثعابين

هل سألت نفسك يومًا لماذا يقولون إنه بمجرد أن يراك ثعبان ويلحظك فلا مجال للهروب على الإطلاق؟ مهما فعلت أو تخفَّيْت لا يمنكك الاختباء من الثعبان أبدًا.

تحتوي الثعابين على مجموعتين من العيون، أما المجموعة الأولى فهي العيون العادية التي تراها، وهي ترى بشكل طبيعي -كغيرها- وبدرجة جيدة من تمييز الألوان، غير أن المجموعة الثانية من العيون هي بؤر رؤية تستشعر الحرارة، وترى الكائنات الحية تمامًا كمستكشفات الأشعة تحت الحمراء المستخدمة حديثًا في الأسلحة وغيرها.. فترى الأشخاص تمامًا، لذا فإن وقعت في مرمى بصر ثعبان مفترس، فلن تستطيع

الاختفاء منه خلف الأشجار أو حتى الأبواب، لأنك ستظل مرئيًّا بالنسبة له.. لكن من لطف الله بنا، أن الثعابين تمتاز بطبيعتها الهادئة، التي لا تميل إلى المطاردة والقتال، وإنما تفضل الذهاب للبحث عن فريسة أخرى. سبحان الذي حباها بما تستطيع به مطاردة فريستها بالرغم من أسلوب حركتها البطيء، والذى يعتمد على الزحف لغياب الأطراف.

إننا لو درسنا عين كل كائن حي، فسنرى فيها مميزات غريبة تفوق الوصف، واختلافات متباينة تتناسب مع البيئة التي يعيش فيها، مما ييسر له سبل الحياة مع باقي الكائنات الحية الأخرى المتباينة. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

hiragate.com

د. خالد صلاح حنفي محمود*

النوستالجيا
الحنين إلى الماضي

دائمًا يبقى لدى الإنسان الشوق والحنين إلى ماضيه، وذكرياته وأحلامه، لذا لم يكن غريبًا أن يصف الشعراء والأدباء تلك الحالة ويوثقوها بأشعارهم، إذ يقول الشاعر الجاهلي امرؤ القيس في مطلع معلقته، باكيًا على الأطلال ومستوقفًا أصحابه: "قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"، أما المتنبي فيقول واصفًا شوقه وحنينه:

ما الشوقُ مُقتنعًا مِنّي بِذا الكَمَد حتى أكونَ بلا قلبٍ ولا كَبِد

ويقول محمود درويش: "الحنين وجع لا يحنّ إلى وجع؛ وجع البحث عن فرح سابق لكنه وجع صحي، لأنه يذكرنا بأننا مرضى بالأمل وعاطفيون. الحنين ندبة في القلب وبصمةُ بلدٍ على جسد". ويصف أحمد خالد توفيق تلك الحالة بقوله: "هل فهمت الآن الحكمة من كون عمر الإنسان لا يتجاوز الثمانين على الأغلب؟ لو عاش الإنسان مائتي عام لجنّ من فرط الحنين إلى أشياء لم يعد لها مكان".

ولكن ما هو الحنين إلى الماضي؟ وما أسبابه؟ وكيف تأثر الأدباء والشعراء والفنانون به ووصفوه في أعمالهم؟ وما فوائده؟

طبيعة النوستالجيا

يعود مصطلح "النوستالجيا" أو الحنين إلى الماضي، إلى المصطلح اليوناني القديم "Nostalgia" الذي يعني "ألم الشوق". وقد كان للحنين في الماضي أوجه معروفة الملامح؛ فهناك الحنين إلى الوطن الذي يعيشه المغتربون والتجار الذين يغادرون بيتهم أو بلدهم لزمن غير محدود، وكذلك الحنين إلى الحبيب والأهل والخلان وأطلال سكناهم.. وأيضًا الحنين إلى زمن الصبا وعنفوان الحياة، والحنين إلى زمن الشهرة والنجاح. وهذا النوع الأخير يحمل الكثير من عذوبة المشاعر والذكريات الجميلة، التي ألهمت الفنانين وتغنّى بها الشعراء في قصائدهم، والأدباء في رواياتهم، والموسيقيون في روائع ألحانهم.

ويتحول الحنين أحيانًا إلى حالة مرضية مزمنة أو مستعصية، لها طابع رومانسي في مخيلة صاحبها، وذلك -تحديدًا- حين يصبح مصطبغًا ومقترنًا بغاية في حد ذاتها، فإن كان الحنين هنا إلى الوطن أو إلى الأحباء.. فإن العودة أو اللقاء ينفيان وجع الحنين، وسرعان ما يستبدله صاحبه بحالة أخرى تخدم الغاية نفسها. وتشبه هذه الحالة عوارض من يستعذب لعب دور الضحية فيرفض الخروج من إطارها. ومن يسمح لمشاعر الحنين في الهيمنة على تفكيره، والاستحواذ على مساحة أكثر من هامشها الطبيعي، يبدأ بالانفصال

للنوستالجيا فوائد صحية رغم ما يسببه الحنين إلى الماضي من ألم، إنه يشحن الدماغ بطاقة إيجابية، ويحقق الشعور بالانتماء والرضا النفسي، ويزيد رغبة الفرد في الاستمرار بالعيش وخوض تجارب جديدة.

حراء

عن واقع الحياة ليعيش في عالم وهمي افتراضي، مع فقدان التفاعل مع المحيط وبالتالي الرغبة في الحياة، لتتفاقم حالته وتتحول إلى اكتئاب مرضي.

وأكدت دراسات عديدة، أن الحنين مرتبط بستة أنواع من المشاعر، وهي الحنان والانزعاج والعزلة والفقدان والخوف والصفاء. وتشكل فيما بينها خليطاً من المشاعر الإيجابية والسلبية. وتتفاوت حدة مشاعر الحنين -مثل الخوف والفرح- بين شخص وآخر تبعًا لظروف الحياة والعمر ونفسية الإنسان. فمشاعر الحنين عند الإنسان المادي أو المستقر عاطفيًا واقتصاديًا، تكون أقل قوة وتأثيرًا مقارنة بنظيره المتقدم في العمر أو المغترب أو غير المستقر.

ويتم استثمار حالة الحنين في سوق التجارة وصناعة الإعلانات، حيث يتم -بين الحين والآخر- إعادة إنتاج ما كان رائجًا في زمن مضى، من الأزياء والموسيقى والسينما والسيارات، ليشكل الحنين -بهذا- دافعًا لدى نسبة كبيرة نحو اقتناء صورة تجسد ماضيهم. وتبقى مشاعر الحنين لدى الإنسان في حالة سبات أو كمون، حتى يواجه مؤثرات خارجية توقظها دون إرادة منه. ومن أبرز هذه المؤثرات، الموسيقى والعطور والاحتفالات المرتبطة بالشعائر الدينية.

النوستالجيا والأدب

يعود مصطلح الحنين إلى الأساطير الإغريقية القديمة، إلى البطل "أوديسيوس" أحد أشهر المحاربين الذين شاركوا في حصار مدينة "طروادة" في حرب طويلة، وكان صاحب فكرة الحصان الخشبي الذي اختبأ في بطنه الجنود حتى دخلوا مدينة "طروادة" واستولوا عليها

hiragate.com

وذبحوا أهلها. لذلك حلت عليه لعنة عرافة المدينة بأن يتيه في البحر بلا مستقر، وقد حدث ذلك عندما حاول العودة إلى بلدته "إيثاكا"، حيث ضاع في البحر المتوسط بين أمواجه وجزره لعشر سنوات كاملة، يدخل سلسلة من المغامرات ويقابل وحوشًا أسطورية، ولكنه يتغلب على كل ذلك بدافع من حنينه الذي لا يهدأ من أجل الوصول إلى "إيثاكا"، ويسترد عرشه وزوجته وابنه.

وآمن قدماء المصريين بالبعث، واخترعوا الأساطير التي تتكلم عن العالم الآخر والحياة بعد الموت، واهتموا بالتحنيط حتى لا يفنى الجسد ويبقى الإنسان على هيئته التي كان يعيش بها قبل الموت.. ففي القبر المغلق لا يجد الميت -بعد عودته إلى الحياة- مناصًا من العيش في دوامة لا تنتهي من الحنين، إنه يتذكر حياته السابقة بكل ما فيها من أفراح وأتراح.

وتبدو ظاهرة النوستالجيا في الأدب العالمي بشكل واضح، ففي العادة يعتمد الكاتب على تجربته الذاتية، خاصة في أعماله المبكرة قبل أن يصبح محترفًا، والتجربة مركبة يختلط فيها الماضي بالحاضر.. ولعل أشهر نموذج لذلك هو رواية "بحثًا عن الزمن الضائع" للأديب الفرنسي "مارسيل بروست"، وهي ملحمة طويلة يستحضر الكاتب فيها ذكريات طفولته، ويربطها بالإشارات الموجودة في الحاضر، فكل تصرف يقوم به أو مشاعر يحس بها، يعود في جزء منه إلى أحداث الطفولة.. إنها رواية الحنين الأولى بحثًا عن زمن الطفولة الذي يهمله الآخرون، رغم أنه هو الذي يبني شخصية الإنسان في المستقبل.

وكان الحنين إلى الديار والأم والحبيبة، وإلى الأصدقاء والأمكنة، منبع إلهام عدد كبير من الشعراء والأدباء العرب، ويتجلى هذا الحنين في العصر الجاهلي في شعر امرئ القيس الذي يعد أشهر من بكى على الأطلال وذكرى الديار، حيث يقول في مطلع معلقته الشهيرة:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسِقْط اللِّوى بين الدَّخول فحَوْملِ

ولم يفت أمير الشعراء أحمد شوقي أن يصف حالة شوقه وحنينه إلى الوطن في شعره:

اختلافُ النهار والليل يُنسي
أُذكُرا ليَ الصِّبا وأيامَ أُنسي

وأغنى أدباء المهجر المكتبة العربية بروائع الأعمال والقصائد التي تفردت بقيمتها وجماليتها اللغوية والفكرية، ذلك كما في أدب جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وغيرهما.

وفي الأدب العربي عديد من الأعمال، ومن أشهرها رواية "الأيام" لـ"طه حسين" الذي يروي فيها أحداث طفولته بإحدى القرى الفقيرة في صعيد مصر، ويستعيد بأسى وحزن كيف أنَّ آخر لون يتذكره كان اللون الأحمر.. فقد أصيب وهو صغير بحمى "الحصبة"، وألبسه أهله ثوبًا أحمر اللون، اعتقادًا منهم بأن هذا اللون سيجعله يبرؤ من هذا المرض، لكنه يصاب في النهاية بالعمى. وبالطبع، هي رواية حزينة ولكن هذه الإعاقة لم توقفه، ودفعه التحدي لأن يكون عميدًا للأدب العربي.

النوستالجيا والفن

لعل أشهر الأفلام التي حملت الاسم نفسه، هو فيلم "نوستالجيا" للمخرج الروسي "أندريه تاركوفسكي" الذي يطلق عليه "شاعر السينما".. مخرج روسي يرحل إلى إيطاليا بحثًا عن موسيقار مات مغمورًا هناك، وتتداخل الأحداث المعاصرة مع وقائع الماضي، التي تتكشف مع مواصلة البحث، ولا يستطيع التفريق بين ما يحدث له في واقع البحث وما يحمله داخله من ذكريات.. وقد حصل هذا الفيلم على عديد من الجوائز، ويعدُّ واحدًا من أفضل الأفلام في تاريخ السينما. وقدم المخرج الأميركي "جورج لوكاس" في بدايات دخوله صناعة السينما، فيلم "أميريكان غرافيتي"، الذي شكل ظاهرة مختلفة من الحنين بين الشباب لدى عرضه في عام ١٩٧٣م. وتمثلت تلك الظاهرة في حنين الشباب المراهق في السبعينيات إلى

hiragate.com

زمن الخمسينيات من القرن الماضي، الذي لا تملكه ذاكرتهم لتنتشر ثقافة جديدة تعيد زمن تلك المرحلة.

وعلى المستوى العربي شاعت أفلام الحنين، ومنها فيلم "إسكندرية ليه"، الذي يستعرض فيه مخرجُه يوسف شاهين جانبًا من شبابه المبكر، حين كان يحلم بالسفر إلى "هوليوود" ليتعلم إخراج الأفلام. وعلى نفس المنوال صنع أسامة فوزي فيلم "بحب السينما" ليتحدث عن الأفلام التي شكلت وجدانه ودفعته لعشق السينما.. أفلام كثيرة يروي فيها صناع السينما تجاربهم الذاتية، وكلها حققت نجاحًا كبيرًا لأنها مست وترًا حساسًا في نفوس المشاهدين، فالحنين للماضي هو لغة مشتركة بين البشر.

فوائد النوستالجيا

النوستالجيا كما يعرِّفها علماء النفس، آلية دفاع يستخدمها العقل لرفع المزاج وتحسين الحالة النفسية، وهي تكسر حالة الشعور بالملل أو الوقوع في أسر الوحدة، خاصة عند شعور الإنسان بأن حياته فقدت قيمتها، فيقوم العقل باستدعاء ذكريات الماضي واللحظات السعيدة الدافئة، الأمر الذي يساعده على الاستمرار في حياته. فالنوستالجيا هي إحدى السبل الناجحة التي تحد من الاكتئاب ولو بشكل مؤقت؛ فالشعور بالوحدة يدفع المرء إلى العودة إلى اللحظات السعيدة في الماضي، وهذا بدوره يسهم في تعزيز الثقة الاجتماعية لدى الشخص، ويولد نوعًا من المشاعر الأفضل.

وتؤكد الدراسات الحديثة أن الحنين ليس مجرد استغراق في الماضي، وقد كشف التشخيص بواسطة أجهزة المسح الدماغي أن هناك جزءًا في المخ يختص بهذه الذكريات، لذلك فإنها يمكن أن تكون مصدرًا للإلهام وبث مشاعر الراحة في النفس البشرية. ويمكن أن تساعد الذين يعانون من لحظات عصيبة في حياتهم المهنية على اجتياز هذه اللحظات، بل تحفيزهم على تأدية أعمالهم بشكل أفضل عندما يتخلصون من ضغوط الحياة الحديثة، فيمكن للفرد العودة إلى فترة يختارها عن قصد، كمشاهدة فيلم قديم أو رؤية مسرحية، أو قراءة كتاب قديم.

وقد أظهرت دراسة أجرتها جامعة "سري" في لندن عام ٢٠١٧م، أن للنوستالجيا فوائد صحية رغم ما يسببه الحنين إلى الماضي من ألم، ومنها شحن الدماغ بطاقة إيجابية لأنه يثير العواطف بشدة، وتحقيق الشعور بالانتماء والرضا النفسي، وزيادة رغبة الفرد في الاستمرار بالعيش وخوض تجارب جديدة.. كما أن الماضي بالنسبة للإنسان يمده بالشعور بالأمان والراحة النفسية، تمامًا كالشعور الذي يحققه التأمل أو رياضة اليوجا، فضلاً عن أن الحنين للماضي يثير الإلهام وتعزيز التفكير الإبداعي والتفاؤل.

أيضًا إن الحنين للماضي، يجعل الناس أكثر دفئًا بالمعنى الحرفي. فقد وجدت دراسة علمية تم نشرها في عام ٢٠١٢م، أن الاستماع إلى موسيقى الحنين إلى الماضي، تسبب في ارتفاع درجة الحرارة المحيطة للمشاركين.

أما بالنسبة لكبار السن، فغالبًا ما تؤدي استعادة الماضي إلى الشعور بمشاعر إيجابية، لأنها تذكر الفرد بمكامن قوته القديمة وتمحو عنه وهن الشيخوخة. يقول الدكتور "كلاي روتلدج" عالم النفس الاجتماعي في جامعة ولاية "نورث داكوتا": "إن الحنين إلى الماضي أو النوستالجيا، يمكن أن يعزز من المزاج، والتفكير الإيجابي، واحترام الذات، ومشاعر الترابط الاجتماعي، والتفاؤل بشأن المستقبل". النوستالجيا إذن، ليست حزنًا على الماضي، بل قد تكون دافعًا لاستمرار الحياة ومواجهة المستقبل. ■

(*) كلية التربية، جامعة الإسكندرية / مصر.

المراجع

(١) النوستالجيا حنين وألم، إبراهيم المليفي، مجلة العربي، العدد: ٧٧١ (٢٠٢٣م).

(٢) ويكيبيديا (٢٠٢٣م)، الحنين، https://ar.wikipedia.org

(٣) الحنين.. عناق الوهم، رشا المالح، صحيفة البيان، الإمارات العربية المتحدة (٢٠١٢م).

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

جناحا العروج
العلم والأدب

يرى البعض أن العلم والأدب نقيضان لا يجتمعان.. بينما يرى آخرون أنهما جناحان لا غنى عنهما للعروج الحضاري؛ فالعلم يهيمن على الماديات والحرف وعمران الحجر، بينما يعنى الأدب بالمعاني والأفكار وعقول البشر. إذن، كيف يمكن المقاربة بين رؤى الفريقين؟

للعلم موضوعيته وتجريداته، وللأدب ذاتيته وإلهاماته.. وللعلم نظرياته وحقائقه، معادلاته ورياضياته، مصطلحاته ومختبراته، كيمياؤه وفيزياؤه، ذراته ومجراته، أحياؤه وجيناته، رموزه وآثاره العقلية والتقنية

والاجتماعية المباشرة وغير المباشرة.. في حين أن للأدب عالمه الخاص من العقائد والآراء، والدوافع والمشاعر، والأفكار والثقافات، عالم التواصل الشفهي والكتاب، عالم اللغات وإيحاءاتها وتلميحاتها، وغموضها ووضوحها، وشعرها ونثرها، وجميلها وبديعها، وآثارها المتنوعة فكرًا ووجدانًا، ثقافة وعرفانًا. وللعلم طرائقه في البحث ونهجه في التفكير، سواء أكان موضوعه الفيزياء أو التاريخ، الطب أو الفلسفة أو غيرهما.. بينما الأدب رحمٌ منه يولد الناس، ودنيا فيها يعيشون ويكبرون، يفرحون ويحزنون، يبدعون ويجسدون، يحلمون ويتطلعون، ثم يموتون.

ولقد ظن البعض أن دارس العلم عالم، ومن درس الأدب أديب، لكن شتان بين الدراسة والممارسة. فعبر حضارتنا كان -وما زال- لدينا أطباء ومهندسون وكيميائيون، يُقرضون الشعر، ويكتبون المقال والقصة والرواية والمسرحية، ويبدعون في الفنون التشكيلية.. كما يوجد مفكرون وأدباء وشعراء وفنانون، لهم أياديهم وأفكارهم ومدارسهم ودراساتهم العلمية. بل في ضوء النظريات المعرفية الحديثة تقرر -ما سبق إليه فحول حضاراتنا- أن ما يسمى بالعلوم الإنسانية، هي علوم ينطبق عليها نفس المنهجية الصارمة للعلوم التجريبية. ولعل تجربة "الفراهيدي" و"سيبويه" أبلغ شاهد في هذا المضمار. فالاثنان نظرا في الآثار الأدبية نظرة العالم الباحث عن القوانين الدينامية التي تقف خلف عمل النظام، فأنتج الأول علم العروض، وأبدع الثاني علم النحو، وكلاهما علمان صرفان يخضعان للمنطق الرياضي. في حين أن هناك من لا يزال يدرس (المقالة النقدية) كضرب من ضروب الإبداع الأدبي، لها سماتها الإبداعية الخالصة، ولا تنتمي بصلة إلى العلوم الصرفة.

ويلاحظ أن العقل الإنساني غير محدود بقدراته وإدراكاته، وما يمكن للإنسان أن يتقنه في حياة واحدة. فالمرء يمكنه إتقان أكثر من لغة، ويتبحر في علوم ونحويات وبلاغة لغته الواحدة الخاصة، ويتقن في الوقت ذاته أصول الحساب والجبر والرياضة العقلية، وبالتدريب والممارسة يمكنه إتقان علوم مختلفة.

فلقد أنتجت حضارتنا العربية الإسلامية علماء

إن اجتماع الأدب بالعلم، يقلل من جفاف النظرية العلمية وينشرها للعامة، كما أن العلم يكشف خفايا نفس الأديب شاعرًا أو ناثرًا أو فيلسوفًا، ويفسر سبب بروزه وتميزه وتأثيره على مجتمعه.

عباقرة موسوعيين، لم يكن لديهم قطيعة بين كيمياء وفلك وحساب وطب، وبين فكر وفلسفة وشعر وأدب؛ كـ"الرازي" الطبيب الفيلسوف، و"جابر بن حيان" أبي الكيمياء، و"الزهراوي" أبي الجراحة، و"ابن سينا" الشيخ الرئيس، و"ابن البيطار" أعظم عباقرة الأعشاب والنباتات والصيدلة، و"ابن النفيس" إمام الطب، و"ابن الهيثم" أمير النور والبصريات، و"عباس بن فرناس" أول طيار في التاريخ، وصولًا إلى "إبراهيم ناجي"، و"أحمد زكي"، و"رشدي راشد"، و"مصطفي محمود"، وغيرهم كثير.. كما يوجد "الكندي" فيلسوف فلاسفة العرب، و"الفارابي" المعلم الأول، و"أبو الريحان البيروني" العالم الموسوعي، و"الخوارزمي" أول من اخترع الصفر، و"الإدريسي" مؤسس علم الجغرافيا، و"ابن بطوطة" أمير الرحالة.

لقد كانوا في مختبراتهم، ومشافيهم، ومعاهدهم وجامعاتهم، يمزجون ويختبرون، يشرّحون ويعالجون، يدرسون ويحاضرون.. كما نراهم في مكاتبهم ومكتباتهم يحللون الكلمات والعبارات، ويستخرجون المعاني والتصنيفات، ويصوغون الرؤى والفلسفات، ويبدعون الأشعار والقصص والروايات.

لا جفوة ولا جفاء

ينبغي الاهتمام الكافي بالعلم باعتباره قيمة اجتماعية وسمت نهضوي، حيث كان يتم الاهتمام بالتقنية والتكنولوجيا والاستيراد والاستهلاك أكثر من العلم والتنظير والإنتاج والتصدير، أو بالأبحاث التطبيقية أكثر من الأبحاث العلمية النظرية، لأن مفهوم العلم كان -وما زال- تطبيقيًا. إن الحلول للمشاكل المجتمعية المتنوعة تكون إبداعية بقدر ما يتوافر فيها

hiragate.com

الأصالة والمرونة والطلاقة، ومن هذه العناصر -أيضًا- يمكن فهم عملية الإبداع الأدبي؛ فعلى الأديب توظيف الأدوات العلمية بمرونة، وتكريس الآليات الابتكارية بطلاقة لينتج عملاً مبتكرًا وفنًّا أصيلاً.

وثمة محاولات للوصول إلى علم متكامل يفسر كل الظواهر الجمالية في الأدب، بينما يبقى على الأديب السعي حثيثًا، للكشف عن كل القوانين الحركية التي تفعل فعلها في صنع الجمال الأدبي. مهمة لا يمكن الوصول إليها إلا باتباع سبل البحث العلمي الصرفة المعتمدة على الرياضيات والمختبر. ويذهب "زكي نجيب محمود" في مقال له ضمن كتابه "مجتمع جديد أو الكارثة"، إلى أن: "التقاء الأدب بالعلم، إنما هو التقاء غير مباشر عن طريق إدخال التطبيقات العلمية وأسلوبها في شرايين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، دخولاً يُحيل تلك الحياة علمًا مُجسدًا". ثم يضيف: "بعدئذ يجيء العالم لينفعل بالحياة المحيطة به على ما هي من صبغة علمية، فيتأثر بها وينفعل فيبرع ويُثري".

فصفة العلمية صفة منهجية بمعايير معينة، إذا توفرت في التفكير أصبح علميًّا بغض النظر عن موضوع البحث. وجاء في "موسوعة لالاند الفلسفية: "العلم هو مجموعة معارف وأبحاث على درجة كافية من ناحية الوحدة والعمومية، ومن شأنها أن تقود المشتغلين بها إلى استنتاجات متناسقة، لا تنجم عن مواضعات ارتجالية ولا عن أذواق أو اهتمامات فردية تكون مشتركة بينها، بل تنجم عن علاقات موضوعية تكتشف بالتدرج وتتأكد بمناهج تحقق محددة". وليس من شك في أن التخصص الدقيق في فروع العلوم والمعارف، يفرض عدم إمكانية تجاوزها بغير تعلمها وإتقانها والتبحر فيها، وتبسيطها ونقلها لغير المتخصصين. وفي نفس الوقت هناك ضرب من أصول الفكر والعلم، الذي يعتمد العقل الذي هو مناط البحث والتحليل والتفكير، وهو الفلسفة المقرونة بالثقافة الواسعة.

فالمعماري المتخصص تخصصًا دقيقًا في التصميم الحضري، لا يمنعه مانع من التثقيف والمثاقفة والإلمام بتاريخ العمارة ونظرياتها، أو تاريخ الفن والأدب عمومًا، إلمامًا يقترب من دائرة تخصصه. كل هذا مقرون بتملك ذهنية برهانية تحليلية تعتمد العقل والمنطق في القراءة والتحليل. وذات الأمر ينطبق على متخصص في علوم الطب والتشريح وعلوم الأدوية، فلا يمنعه مانع من الإلمام بفروع من الطب أو العلم أو الثقافة تقع خارج دائرة تخصصه العام أو الدقيق، وهكذا. ولعل مشكلة العلم والأدب في الثقافة العربية، هي إشكالية مرتبطة بجوانب الحياة وتنظيماتها المتنوعة. يدلل الواقع على أن العلم والأدب لا يتقدمان ويبدعان إلا في ظل مؤسسات ومحاضن فكرية واقتصادية واجتماعية وتعليمية وإعلامية متعافية.

ولنا وقفة مع الشاعر "معروف الرصافي" ، وهو يدلي بدلوه فيقول في قصيدة له منها:

أدب العلم وعلم الأدب***شرف النفس ونفس الشرف

بهما يبلغ أعلى الرتب***كل رام منهما في هدف

أيها السابح في بحر الفنون***غائصًا في لُجّها المتلطِّم

قرنك الحاضر من أرقى القرون***خضع السيف به للقلم

فالمعالي أودعت في الكتب***كاللآلي أودعت في الصَدَف

إنها دعوه لمشاركة أهل الاختصاص والبحث العلمي في الحياة الثقافية كتفًا إلى كتف مع نظرائهم من أهل الأدب، فيزيدونها تراكمًا على تراكم. إنها دعوة لإيجاد لغة مشتركة بين العلم والأدب يستفيد منها العامة، بحيث لا يبقى التخصص حكرًا على أهله حبيسًا عليهم يختفي باختفائهم.

إن اجتماع الأدب بالعلم، يقلل من جفاف النظرية العلمية وينشرها للعامة، كما أن العلم يكشف خفايا نفس الأديب شاعرًا أو ناثرًا أو فيلسوفًا، ويفسر سبب بروزه وتميزه وتأثيره على مجتمعه. إذن، على كل علم أن يصبح فنًّا، وعلى كل فن أن يصبح علمًا. فاللقاء الرائع، لقاء العلم بالأدب (علم الأدب، وأدب العلم)، والصفاء والوئام بينهما يمهد لثقافة العروج بجناحين، ولا ينهض مجتمع أو يرتفع شأن أمة، إلا بهما معًا. ■

(*) كاتب وأكاديمي مصري.

hiragate.com

د. طارق أبو الخير*

شجرة الأبنوس

١

استهوتني مشاهدة النبتة وقت بزوغها بين شقوق اليابسة؛ كان جدي يزرع فدانًا جيرة بيته، يحثّني على الحرث، فخصص لي حوضًا صغيرًا لممارسته، جعله يقارب ظل شجرة الأبنوس العتيقة التي تتوسط أرضه حفاظًا عليَّ من حر الشمس القائظ. ولما توفي جدي، اقتسم والدي مع أعمامي أرضَه، وصارت الشجرة ومحيطها من نصيب أبي.. فقرر بناء بيت له بجوارها، تكون بنيانه من طابق واحد غطت الشجرة بعض سقفه.. كنا نقطن بقرية "الرقبة" بمحافظة أسوان غرب نهر النيل، شارعنا كان يمتد إلى الظهير الصحراوي.. كان ولعي بظلال شجرة الأبنوس يزداد حينًا بعد حين، أوراقها أسطوانية الشكل وخضراء اللون، جلدية الملمس، جعلت منها عشقًا بداخلي.. جذوعها بنية اللون تتناغم مع بشرتي السمراء، ودائمًا كانت مطمعًا لحرفيّ النجارة لسهولة استخدام خشبها في الخراطة وأعمال الترصيع والتزيين.

أنهيت دراستي بكلية العلوم الكائنة بأسوان، وتم تعييني معيدًا بمعهد الدراسات والعلوم البيئية بجامعة عين شمس، وفيه حصلت على درجتي الماجستير ثم الدكتوراه في مجال الفلسفة في العلوم البيئية. بزغ اسمي بين المحاضرين المتشددين في الحفاظ على البيئة ومواردها.

في كل زيارة لأسوان كنت أعود محملاً بالهمّ فوق هموم القاهرة وزحامها، يُصرّ أعمامي أن أجلب لهم السلالات الزراعية الحديثة، دون أن يلقوا بالاً بتأثيرها الضار بَعيدِ المدى على خصوبة التربة.

ظللت أطوف بين الأبحاث العلمية المتعددة، أُنهكت في بحث شامل الصياغة المعلوماتية عن تزايد الأنشطة البشرية على الصعيد العالمي وإسهامها في تغيير المناخ. تقدمت بنتائج هذا البحث للاتحاد الدولي لصون الطبيعة والموارد الطبيعية، الكائن بالبلدية السويسرية "غلاند"، مكنني ذلك من الالتحاق بوظيفة مراقب لدى الأمم المتحدة من بين فريق عمل يساهم في تنفيذ العديد من الاتفاقيات الدولية، للحفاظ على الطبيعة والتنوع الأحيائي.

قصدت قريتي لأنهل فيضًا من حب أمي وأشهد دعاءً بالتوفيق من أبي، لكن هيهات أن يستجيب الحاضر لنداءات ماضيه.. فالملامح تتغير، والأصول تتفرع، والعادات تتبدل.. لقد أظهر أعمامي أطماعهم فيما تبقى من أرض أبي، لهذا صمم أبي أن يزوجني ضمانًا لاستمرار نسله.

تزوجت من إحدى فتيات القرية، مكثت معها شهرين ثم سافرت إلى مقر الجمعية العامة للأمم المتحدة مع مطلع الألفية الثالثة، راجيًا من الله رعاية أبوين وزوجة وشجرة نادرة أهيم بظلها.

لم يكن الحال يختلف كثيرًا بين بيئة النشأة في أسوان غرب نهر النيل، وبيئة العمل الجديد غرب النهر الشرقي بمدينة نيويورك الأمريكية.. النفس البشرية تغتالها الحاجة الاقتصادية في كل مكان، فبينما كان أولاد العم ينتهكون الأرض بتجريفها وإعادة زرعها دون هوادة بالمحاصيل المتوالية، كان هناك من رجال الأعمال من يطيح بآلياته الاقتصادية موارد الحياة الطبيعية، منهم من يحوّل المواد الخام إلى سلع لاستهلاكها، ومنهم من يعيد صياغتها تاركًا خلفه نفايات ملوثة.

تركزت أهدافي حول كيفية حماية سطح الأرض من الإشعاعات، ووضع آليات للمحافظة على عدم تأثر المحيطات المائية بالاحتباس الحراري.. سأجتهد قدر طاقتي في التوجيه والمراقبة على عدم الإفراط في صيد الأسماك، وعدم استخدام المحيطات كمكب نفايات للمخلفات البشرية.

كنت أتواصل بين الحين والآخر هاتفيًا مع آل بيتي ومنهم علمت بأن الله قد وهبني ولدًا، ظلت ضغوط العمل تلزمني باستكمال غربتي لعامين آخرين دون أن أحتضن ابني الذي لا أدرك ملامحه إلا عبر صور فوتوغرافية رأيتها عبر الشبكة العنكبوتية.

أبحاث تلتها أبحاث وليس هنالك من جديد، لا توجد قدرة حقيقية على تلبية احتياجات الحاضر دون المساس باحتياجات المستقبل.. وبرغم تحقيق بعض النجاحات كتقنين ضريبة الكربون المفروضة على إنتاجه واستهلاكه، ودعم التوجه نحو الطاقات المتجددة كالطاقة الشمسية، وكحماية البيئة بإعادة التدوير وتقليل استهلاك الطاقة، إلا أنني لم أكن راضيًا عما تحقق على أرض الواقع من نتائج، لا رصانة لدى معظم الشعوب في تناول حل للتضخم السكاني، لا جديد في ملف الحفاظ على الماء العذب من التلوث أو من خلال ترشيد الاستهلاك، حتى المياه الجوفية صارت في خطر استنفادها.

ظلت أيام الطفولة البريئة تطاردني؛ أتذكر ظل شجرة الأبنوس الفريدة، كانت تزيد عن العشرة أمتار في ارتفاعها، أزهارها صغيرة، ثمارها مستديرة تتوزع على الأفرع الصغيرة في شكل كتل يعطي للشجرة رونقها المتهدل.. يتبادل شعاع الشمس مع ظلال الأوراق في عيني كتبادل قطع اللؤلؤ في لمعانها.. أذكر تسلُّقي عليها بين الحين والآخر، أرى البيوت من أعلاها كأنني أقف فوق ناطحة سحاب بالولاية الأمريكية، تتمايل الفروع بي مع الريح كأنما أعتلي ألعاب الملاهي الجوية بهوليود.. أخاف أن تدركها انتهاكات أبناء العمومة، أشتاق إلى ملمحها العتيق المتجدد، عمرها

hiragate.com

يتخطى القرنين من الزمان، وتلزم صورتها البتول عمق الذكرى.. يجب الحفاظ على تلك الشجرة ومثيلاتها في مختلف الغابات، تلك المناطق التي تعدّل المناخ من خلال انعكاس الضوء والتبخر وتوفر المستحضرات الدوائية للعالم، يجب رعايتها وردع القائمين على اجتثاث أشجارها.

أخيرًا استطعت الحصول على إجازة للسفر إلى مصر الحبيبة، ما أجمل براءة هذا الأسمر الصغير الذي يشبهني وهو يحتمي بشجرتي الغالية.. جلست في رحاب أسرتي أستزيد من ملامحها، وإذ بأولاد العمومة يطرقون الباب، أتوا مستبشرين لذلك النابغ من بينهم، يسترقون معاني التغريب المفرِّطة، يتحدثون عن بيع الشجرة لأحد كبار تجار الأخشاب بالعاصمة المصرية.. يعرض الرجل مبلغًا ضخمًا يقارب المليونين من الدولارات.. رفضت قطعًا تدخلهم في غير ما يملكونه، تحدثوا عن كونها إرثًا للجميع، فالأرض التي تم تخصيصها لوالدي كانت وفق تشريع اجتماع عُرفي لم يتم توثيقه بالهيئات الحكومية. أدركت حينها أن شرف الكلمة قد تولى عهده، لجأت للقضاء ثم أوكلت محاميًا للدفاع عن ممتلكات أبي.

سافرت إلى مقر عملي بالولاية الأمريكية، أنتظر بين الحين والآخر البشارة بحكم قضائي لوالدي بحق الملكية بوضع اليد، لكن أبناء العمومة قد سارعوا بتنازلهم عن حصصهم للدولة المصرية، لإقامة شارع في منتصف أرض الجد تتوسطه الشجرة، وبذلك آلت ملكيته إلى الحكومة المصرية، وصدر حكم قضائي بإقرار الشارع المزعوم للمصلحة العامة.

أزيلت الشجرة وتم بيع أخشابها قهرًا في غيابي، تقاضى الجميع ثمن الأخشاب وألقي لأبي ربع مليون من الدولارات في حساب بنكي منقوص.

عدت إلى بلدتي منكسر الخاطر، عرض أولاد العمومة بيع أنصبتهم في فدان جدي بعد أن تم شطره بشارع مفروض، أرادوا أن يستبدلوا العيش في قريتنا ببناء أبراج شاهقة في أسوان سبيلاً إلى اللحاق بركب العالم المتقدم.. وما كان مني إلا أن اشتريتها منهم دون أن أجد ميزة للأرض في غياب ظل شجرتي الرؤوف.. وعندما وجد جيراننا أنني لا أمانع في شراء تلك الأراضي شبه الصحراوية، عرضوا للبيع فدانًا ملاصقًا فاشتريته.

عدت للعمل في مقر الاتحاد الدولي لصون الطبيعة والموارد الطبيعية بسويسرا، لأوفد من جديد إلى جمعية حماية الحياة البرية في بلاد الهند، كانت تختص بمنع الصيد الجائر للنمور البرية المهددة بالانقراض.

في وقفة على ساحل المحيط الهندي ناداني الأفق من بعيد، يذكرني أن هنالك آفاقًا أخرى أبعد، يعلمني عظمة الخالق باتساع ملكه وتمام رزقه لمخلوقاته.. أزداد إيمانًا بأن الكون كله للإنسان لكنه يتعجل الرزق.

وفي أثناء زيارتي الميدانية للغابات المنتشرة على الحدود الهندية الصينية، رأيت الطبيعة بكل ما تحتويه؛ نباتات خضراء متباينة الأحجام، حيوانات وزواحف وحشرات وطيور.. ظللت أبحث عن ضالتي حتى وجدت أشجار الأبنوس.. التقيت بعدد من العمال المهرة في زراعتها.. ظللت أركن كثيرًا إلى التمتع بظلالها، حتى لاحظ أحدهم ولعي بها، فأهداني أصيصًا يحوي شجرة نامية.. على الفور سعيتُ في طلب إجازة للسفر إلى مصر، بعد أن تقدمت بطلب إلى الحكومة المصرية بالموافقة على استجلابها وزراعتها خلال أيام الربيع.. خصصتُ لها حديقة جيدة التصريف، واستزدتُ تربتها بكثير من المواد العضوية وبعض نشارة الخشب التي جلبتها معي.. لازمتُ سقياها بالماء العذب كل ثلاثة أيام وقت الغروب.. وبعد مرور شهر كامل بدأت زهور أغصانها الجديدة تأخذ في نموها التدريجي، عندها عدت للعمل في بلاد الهند تاركًا أبي وولدي لاستكمال رعايتها.

عدت لاستئناف مهامي في رعاية الطبيعة، لأدفع عنها بغي الإنسان، لأحسن رفاهيته بحماية رأس ماله، لأبقي للأجيال القادمة الماء والهواء والغذاء والدواء.. عاودت لكي أمنح الكائنات الأخرى الحق في التعايش مع الإنسان، لأحمي مخزونات الصيد، ولأوسع المجال بين الأجيال لصنع القرار.. رجعتُ لأحظر جموح انتشار الأمراض بين الناس في ظل غياب المفترسات الطبيعية، ولتحقيق نمو اقتصادي مستدام. ■

(*) طبيب وروائي مصري.

د. علي مدني رضوان الخطيب*

السعادة الزوجية
بين الواقع والمثال

١ السعادة التي نعنيها، هي رابطة تنشأ بين الزوج وزوجته على نحو خاص وبشروط خاصة، وهذه الرابطة تسمى "الرابطة الزوجية"، التي صارت مشروعة بالعقد، وهي ما عبَّر عنه القرآن الكريم بـ"الميثاق الغليظ"، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:٢١).

قال صاحب "الكشاف": "الميثاق الغليظ هو حق الصحبة والمضاجعة، ووصفه بالغليظ لقوته وعظمه، وقد قالوا صحبة عشرين يومًا "قرابة"، فكيف

بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج"[1].

ويرى الطاهر بن عاشور، أن الميثاق الغليظ هو عقد على نية إخلاص النية ودوام الألفة، أي كنتم على حال مودة وموالاة كالميثاق على حسن المعاملة[2].

وللشيخ محمد عبده كلام نفيس في هذا المعنى يقول: "إن المرأة لا تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها، إلا وهي واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة، وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة، وهذا ميثاق فطري من أغلظ المواثيق وأشدها أحكامًا[3].

وكلمة الميثاق الغليظ، كلمة موجزة لكنها موحية ومعبرة، لأن السعادة الزوجية لا تتم إلا بتوافق متناغم بين الزوجين. وبعبارة أخرى تعني: التآلف والتكاتف والتعاطف والتناغم والأشواق والتضحية والنصيحة والصحبة.. وعند هذه النقطة تحديدًا، فثمة أمور تدرك ولا تقال للوصول إلى درجة التوأمية، وهي شعور الفرد بنفس إحساس الآخر، وهي درجة راقية في تنامي السعادة المطّردة، حتى إذا أصيب أحد الطرفين بصداع -مثلاً- شعر الآخر مثله بنفس الأعراض، وإذا جاع طرف أحس الآخر بالجوع أيضًا، وإذا ظهر البشر والسرور بأحدهما ابتهج الآخر حتى وإن لم يره. ولقد اشتكت أمُّ المؤمنين عائشة ﵂: فقالت وا رأساه! فقال النبي ﷺ على الفور "بل أنا وا رأساه" (رواه البخاري).

ضوابط السعادة الزوجية

١- تحقيق الرضا التام بين طرفي العلاقة الزوجية؛ أو بمعنى آخر قبول كلا الطرفين لصاحبه قبولاً وجدانيًا، فتقوي تلك الأرواح بعضها البعض فتكون كالجند المجندة تتعارف فيما تحب، وتتناكر فيما تكره.

وفي الحديث النبوي الشريف: "الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف" (رواه مسلم). حدث ولا حرج إذا ما اختلفت تلك الأرواح وأنكر بعضها بعضًا، ولكن هل الرضا المطلوب هنا هو الرضا التام الذي لا تشوبه شائبة، أم أنه قد ينوب عن

على الزوجين أن يدركا أهمية المودة والرحمة في تقوية الروابط الأسرية، والتخطيط بالعقل الجمعي والمشورة، ومعرفة خطورة ضياع مملكة الأسرة وهدمها. ولن تتحقق الرعاية والاهتمام والاحترام، إلا في مناخ الحب والتسامح والصفح.

حراء

المرأة وليها مما يدريه عنه بواقع خبرته الحياتية؟

الصحيح في المسألة أن الرضا هو المطلوب (أيْ الرضا النفسي)، أو بمعنى آخر الارتياح الداخلي، وهو رضا قلبي وجداني محض لكون الأرواح جنودًا مجندة.

٢- إيجاد موضوع مشترك بين الطرفين سلفًا؛ وهو هنا الزواج، وهذا بدوره يحتاج إلى تخطيط مسبق، بأن يسأل كل طرف من أطراف العلاقة، عددًا من الأسئلة التي يستوضح بها كنه ما يريد، سيما وأن عقد الزواج كما يقول الفقيه "الكاساني الحنفي": "عقد عمري يدوم"، أي يأخذ مساحة كبيرة من عمر الإنسان، لكون الأصل فيه على التأبيد فيسأل كل منهما نفسه قبل الارتباط وتوريط النفس والأهل بما لا ينبغي أن يكون: ما هي حاجتي النفسية لهذه الزوجة أو هذا الزوج؟ ولماذا أنا مشدود إليها أو إليه دون غيرها؟ وهل ثمة ارتياح لخلقها وخلقتها؟

٣- الإلزام؛ بمعنى أن الإنسان كان قبل ارتباطه بزوجته حرًّا مختارًا، يملك وقته بطوله وعرضه ولا ينازعه فيه أحد، كما أن كدّه وكسبه يصرفه كيفما شاء وحيثما أراد من غير أن يسأله أحد.. لكنه بعد ارتباطه بمن يشاركه حياة زوجية مشتركة، صار ملزمًا بما يمليه عليه الشرع والعرف والذوق الإنساني العام؛ فلم يعد حرًّا ولا مختارًا أن يسهر خارج البيت لغير حاجة، أو يسافر بغير ضرورة، أو ينفق ماله في غير موضعه، وإنما أصبح هناك من تشاركه أفكاره وأمواله وحياته ومستقبله، وعواطفه.. بمعنى آخر فإن مراعاة شعور الزوجة، هو جزء من التزام غير مكتوب يقع بالدرجة الأولى على عاتق الزوج، وما عقد الزواج إلا صورة رمزية، وقرينة على الوفاء بهذا النوع العظيم من الإلزام.

hiragate.com

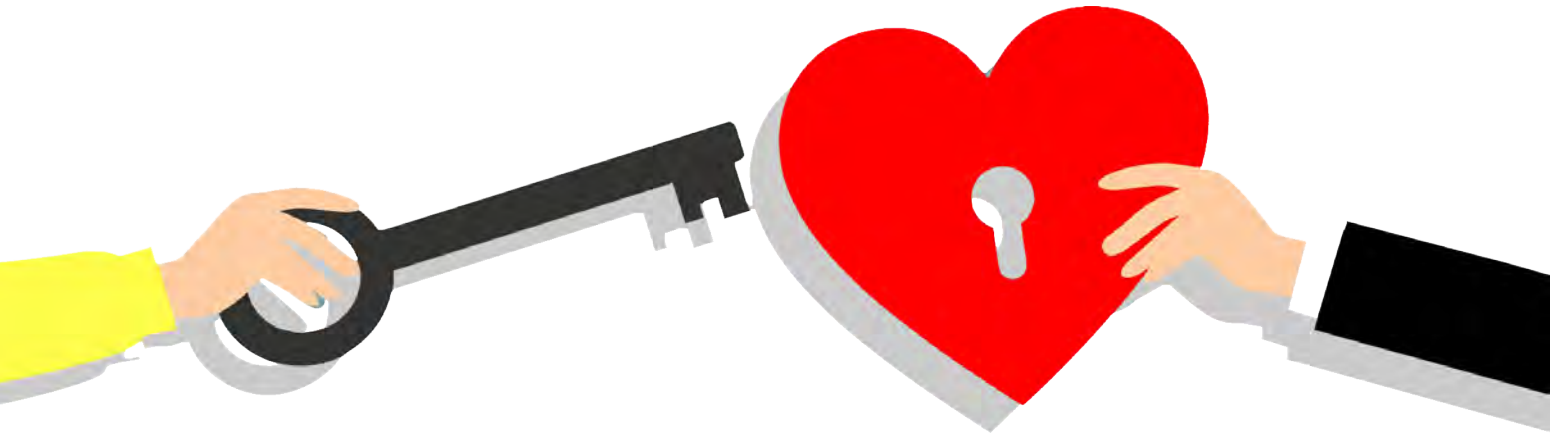

٤- وجود هدف مشترك يحيون به معًا؛ فمثل هذا الهدف يبقى على ديمومة الحياة واطراد النظام بين الطرفين، وهل هناك قاسم مشترك أعظم من الدين والخُلق؟ يقول رسول الله ﷺ: "إن جاءكم من ترضون دينه وخلُقه فزوِّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" (رواه الترمذي).

٥- الملاطفة من جانب الزوج؛ لأن المرأة تذبل كالوردة إذا لم تُسق بالماء، وسقي المرأة هو الاهتمام بها، وملاطفتها والثناء عليها، ما يجعلها تتحول مائة وثمانين درجة لصالحك ولصالح بيتك. بعض الأزواج إذا مرضت زوجته يرسلها إلى بيت أهلها، وعندما تتعافى يأتي بها، وهو أسلوب مملوء بالقسوة. لقد تغيب عثمان ﷺ عن غزوة بدر؛ لأنه كان يمرّض زوجته "رقية" بنت رسول الله ﷺ. وقد جاء في البخاري: وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه".

أهمية السعادة الزوجية

لقد ثبت أن السعادة الزوجية ترفع مناعة الجسم وتقويها. وأثبتت الدراسات أن السعادة الزوجية تؤثر على زيادة نسبة الكولسترول الجيد بين الأزواج، وأن هرمون الكورتزون مرتبط بالضغط العصبي، وأن السيدات اللواتي يرتفع عندهن نسبة هذا الهرمون، يتعرضن للطلاق بعد مرور عشر سنوات من الزواج.

وصدق الله حيث قال: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾(البقرة:٣٥)؛ وفي الآية إشعار بأن السعادة والرضا لا تكون في وحشة الانفراد، وإنما تكون في التوافق والتآلف بين الزوجين لقضاء حياة مشتركة مملوءة بالمودة والرحمة.

نقاط على الحروف

إن كثيرًا من الزوجات ترغب في الحد الأدنى من الاحترام، وقد يفضلنه على الحب إن غاب هذا الأخير، لأن الحب يصبح مزيفًا عندما تهدر المشاعر وتصادر الأحاسيس، وتنتهك الخصوصيات ونتعدى الخطوط الحمراء. وإذا سألنا جمهرة من النساء منذ أن خلق الله الدنيا: ماذا تريد المرأة؟ أي ماذا تريد امرأة من زوجها؟

ورغم اختلاف المشارب والثقافات والأولويات، تبقى الإجابة مسطرة في قلوبهن، وهو "جانب الاهتمام بها"؛ لأن المرأة تحب من يسمعها ويصغي إلى همومها واهتماماتها ويضمد جراحها.

والمرأة أيضًا، تسعد بالعطاء والحب المتبادل الطبيعي والفطري غير المتكلف أو المصنوع، أي إن المرأة تحب أن تشعر بالأمان النفسي والحياتي، ولا يتحقق هذا الأمان إلا بالمعاملة الصادقة، لا بتغاضي الزوج عن زلاتها وهفواتها، حتى يصل به التغافل إلى عدم الاستماع لها أو رؤيتها.. والنبي عليه السلام قدوة لنا في هذا الجانب: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾(التحريم:٣)؛ لقد أخفى النبي عليه الصلاة والسلام كلامًا أسرّ به إلى السيدة "حفصة" ﵂، ولكنها أخبرت

hiragate.com

بـه عائشـة ﵂، فعرّفـه الوحـي بذلك، فعـرض النبي بعضه لـ"حفصـة" وأعـرض عـن بعـض. قـال السـمرقندي: "أي سـكت عـن بعـض لأن الكريـم لا يبالـغ في العتـاب"[٤]. إذا اسـتطاع الرجـل أن يعظـم من الجوانـب الإيجابية لدى زوجتـه ويشـجعها ويدفـع بهـا ويكافئها، انطلق إحساسـها المتدفق بالحب والعطاء، والتشبث بالحياة الجميلة الراقية التي هي جزء منها.

ومـن المهـم أن نعلـم أن بعـض الرجال يسـيطر عليهم شـعور سـلبي هو من مدد الشـيطان؛ بأن كل نسـاء الأرض يفضلـن زوجـه أو العكـس.. وتشـعر بعـض النسـاء أن كل رجـال الأرض يفضلـون زوجها، وأنها قـد دلس عليها في زواجها، فأعطوها المتردية والنطيحة وما أكل السبـع.. هذا الشـعور يقتل الحياة الزوجية ويهدمها، وهو أبعد ما يكون عـن الحقيقـة، بـل إن الرجـل لـو اطلـع علـى نسـاء محلته ممـن يتوقـع أنهن يفضلنهـا، لرجـع عن رأيـه، ولأدرك أن زوجتـه تفـوق الكثير منهن فطنة وجمالاً، وتتبدد وسـاوس نفسـه ويخنـس شـيطانه، فيجد نفسـه فـي حالة مـن الوفاق الأسري والتناغم العاطفي، فتنقشـع الغشاوة من على عينه فتعظـم زوجتـه عنده، ويتسـع قلبه الكبيـر لأن يضمها إليه حبًّا ورغبة ومودة.

احتياجات المرأة من الرجل

ثمـة مثلـث لا تسـتغني المـرأة عنـه، وحينمـا يوجـد فـي بيـت مـن البيوت فهـو الجنة الدافئـة الوارفـة، التي تظلل بأغصانهـا كل مـن فـي البيـت، وهـذا المثلـث يتمثـل في الأمـن والاسـتقرار والحـب. ومتـى فقـدت واحـدة مـن هـذه الـثلاث، بـدأت ريـاح القلـق وبـوادر الشـقاق.. وعندما يغيب هذا السكن المعنوي، يبرز ضعف الترابط الأسـري والاجتماعي، وتبرز وجوه كالحة عليها غضب الرحمـن؛ فإذا بالأزواج يهربون من السـكن ولا يعودون إلا للنوم (مصالـح مؤقتة)، والأولاد يقهر بعضهم بعضًا، وينحرفـون فـي غيـر مـا رقابـة مـن أحـد لأن الأبويـن قد انشـغلا بمشـاكلهما الخاصـة، وصـارت البيـوت خاليـة مـن المـودة والرحمـة، كانهـا بيـوت العنكبـوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٤١)؛ لم يقـل أوهن الخيوط، فقد ثبت علميًّا أن خيـط العنكبوت أشـد من خيوط الفولاذ، لكن الوهـن هنـا، هو وهن العلاقات الاجتماعية ليكون البيت المملـوء بالصخـب والصيـاح والجـدال بيـتَ عنكبوت. حتـى وإن شـيد بالحديد والحجارة والفـولاذ، يبقى بيت العنكبـوت هـو أبعـد البيـوت عـن صفـة البيـت بمـا يلزم مـن أمـان وسـكينة وطمأنينة، حيـث يخيم عليـه الخوف والتربص والقسوة وانعدام أواصر القربى.. وهذه البيوت كما حدثنا عنها القرآن، هي بيوت خربة غير عامرة.

إذن علـى الزوجين أن يدركا أهمية المودة والرحمة، والحـب والتفاني في تقوية الروابط الأسـرية، والتخطيط بالعقل الجمعي والمشورة، ومعرفة خطورة ضياع مملكة الأسـرة وهدمها. ولن تتحقـق الرعاية والعناية والاهتمام والاحترام، إلا في مناخ من الحب والتسامح والصفح.

ولا تنـس أنـك أخـذت امـرأة مختلفة عنـك في أمور كثيـرة، فليـس المطلـوب منـك أو منهـا أن يغيـر أحدكما الآخـر، بـل المطلـوب التأثير في الآخر؛ بـأن يمتلك كل طـرف طاقـة إيجابيـة بناءة تؤثر في الـروح المقابلة، حتى تصبـح كالجنـد المجنـدة؛ لأن تغييـر الآخـر يعنـي إعادة تربيته من جديد فيما يحب ويكره، وفي عاداته وتقاليده، وبيئتـه وتفكيـره وأسـلوب عيشـه.. لكـن يمكـن للمـرأة -بقـوة إقناعهـا- أن تحبـب نفسـها لدى زوجهـا، لينقلب الحال من نفور منها إلى حب وشغف إليها. ■

(*) دكتوراه في الشريعة الإسلامية، جامعة طنطا / مصر.

الهوامش

(١) تفسير الكشاف، الزمخشري، ص:٢٢٨.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٤/٢٩٠.

(٣) الأعمال الكاملة، الإمام محمد عبده، ص:١٨٧، دار الشروق، القاهرة.

(٤) بحر العلوم، السمرقندي، ج٣، ص:٣١٠٩.

hiragate.com

محمد زغلول عامر*

ثمرات الهندسة الوراثية

نشأت الهندسة الوراثية على يد الأندلسي "أبو القاسم الزهراوي"، ساكن مدينة الزهراء الملَكية بظاهر قرطبة، التي ازدانت حدائقها بـ٢٤ نوعًا من النباتات الهجينة التي استزرعها "الزهراوي"، الذي حصر الهندسة الوراثية في كروموزومَين متباعدَين عن بعضهما مسافة ٢ ملليمتر، تحويهما نواة أيّ خلية نباتية، فإذا ما تقاربا إلى درجة التمازج (التلقيح)، فإن الصفات الوراثية للنبات تتغير بمقدار التمازج الذي يحدُث لهما. وهو التمازج الذي مكَّن "الزهراوي" تحقيقه باستخدام "سوليفات النحاس" و"نترات البوتاسيوم"، بما أدى إلى تكوين ثمار الأفوكادو والسفرجل، اللذين يدعم تناولهما "الوسط الحمضي" المحيط بالمُخِيخ، وهو الضروري لتنشيط الوعي وتنظيم تدفق الدم للمخ، وتؤدي قلة حموضته -مع الوقت- لاختلال توارُد الدم إلى المخ، بما يؤدي -مع عوامل أخرى- للإصابة ببعض حالات الفصام.

وقد كوَّن "الزهراوي" أيضًا ١٢ نوعًا من البلح الحاوي الـ"سكروز" المكافئ للبروتين الحيواني، والقُطن المزهِر ذي اللوزة "طويل التيلة"، وهي نباتات لم تكن أصلاً من الطبيعة، حيث استزرع "الزهراوي" أغلبها في صُوبةٍ تتكون من فروع شجرة الصفصاف داخل مدينة الزهراء، خلال الخريف الأندلسي الممتد لثلاثة أشهر، حيث الحرارة تتراوح بين ٢٣ في النهار و١٦ في الليل. وهي الظروف المثالية التي أنتج فيها بعض ثماره، التي منها سُلالات الطماطم بشكلها الحالي، حيث إن ثمرة الطماطم البرية كانت تنبُت أصلاً في "أوزبكستان" في حجم العِنَب الفيُّومي المصري الخريفي، وكانت قليلة الماء ولا بذور داخلها، وتدين الطماطم التي لا يستغني عنها مطبخٌ في العالم الآن لـ"الزهراوي"، الذي كوَّنها بِنَقع "البريَّة" الصغيرة الحجم عشرة أيام في محلول "اليُود" المُشبَّع بـ"نترات البوتاسيوم"، ثم زراعتها في صُوبَتِه بين ٢٦ سبتمبر و١٦ أكتوبر.

وأيضًا، فإن البرسيم والأرز لم تكن سوى أعشاب برِّية صغيرة الثمار؛ فالبرسيم كان عشبة بحجم الحشائش البرِّية تنبت في إقليم منشوريا الصيني، ولكنه تحوَّل لمصدر اللبن الأول بعد انتقال بذوره للشرق الأوسط في القرن السادس عشر، وهندستها وراثيًّا على يد الفلاح المصري "الدُّمَيري"، بما جعلها تنبت من أربع إلى سبع مرات خلال الشتاء. كما أن الأرز الأبيض كان عشبة برِّية بنفسجية اللون، تنبت في جزيرة "هوكايدو" الباردة شمال اليابان. ولكنه انتقل عبر طريق الحرير إلى الشرق الأوسط والأندلس، حيث كان التجار الصينيون يبطِّنون به أجنحاب العرَبات الحاملة أثواب الحرير.. بما لفت أنظار فلاحٍ مسلم عاش في القرن الرابع عشر، يدعى "محمد بن إسحاق الخوارزمي"، وكان أن حصل على شتائله من أحد التجار الصينيين، وهجَّنها مع "نبتة الشعير الهندي" بقرب بحر قزوين في أذربيجان، لإنتاج نبتة الأرز الأبيض خلال الربيع القزويني بين ٢١ مارس و١٥ إبريل، باستعمال "سوليفات النحاس" لمزج الكروموزومَين.

تطور الهندسة الوراثية

وما بين قيام علماء أمريكيين بتطوير سلالات طماطم

نشأت الهندسة الوراثية على يد الزهراوي الذي حصر الهندسة الوراثية في كروموزومَين متباعدَين عن بعضهما مسافة 2 ملليمتر، تحويهما نواة أيّ خلية نباتية، فإذا تقاربا إلى درجة التمازج، فإن الصفات الوراثية للنبات تتغير بمقدار التمازج الذي يحدُث لهما.

تثمر كل ستة أسابيع، وسلالات تفاح تثمر كل ثمانية أسابيع، وقيام باحثين يابانيين بتطوير أوراق الملوخية المصرية ولكن بطعم يشبه الطحالب البحرية من نوع "المُوسِي"، المستخدَم في صنع طبق السُّوشِي الشهير، ينبغي التفريق بين "الهندسة الوراثية" و"التعديل الوراثي"؛ لأن التعديل الوراثي يعني حقن الكروموزومَين اللذين تتكون منهما الخلية النباتية بعناصر ضارة صحيًّا، كاليُود المُشِعّ والباريوم المؤدي لتكبير حجم الثمرة، دون اعتبار الأضرار الصحية الناتجة عن استعمالهما.

وتتمثل أهمية الهندسة الوراثية حاليًّا في تحديد "البصمة الوراثية" للبشر أفرادًا وجماعات، حيث هناك بصمة مشتركة لكلٍّ من الجماعات البشرية، وأيضًا بصمة للفرد الذي يحمل مزيجًا وراثيًّا بين صفات الجماعة المنتمي إليها، وصفاته الذاتية التي ينفرد بها، والتي تُماثل بصمات الأصابع التي يستحيل تكرارها.

وكان للهندسة الوراثية فضل الكشف عن تلك البصمة التي تتحدد وفق ثلاث معطيات، وهي شكلُ الخلايا الجذعية وطريقة عملها التي لاتتكرر أبدًا،

hiragate.com

وطريقة عمل المخ والتكوين المِزاجي للفرد، والقدرات الذاتية للفرد الخاضعة في تقييمها لكلٍّ من الهندسة الوراثية والخوارزميات. وتوصلت آخر أبحاث "الخلايا الجذعية" إلى دور "الهندسة الوراثية" في تشكيل الخلايا الجذعية الـ١٢ خلال مرحلة التكوين من ٣ إلى ١٦ سنة. حيث إن تلك الخلايا لا تتواجد أصلاً في الجسم وقت الولادة، ولكنها تبدأ في التشكل بدءًا من سن السابعة، ولا يكتمل نموها قبل سن ١٨. وتختص بانتظام فسيولوجيا الجسم وتجديد خلاياه التالفة، فإذا ما تشكلت جيدًا نتيجة "جودة الحياة" خلال مرحلة التكوين، فإن معدَّل عمر الفرد وحجم ناتجه سيزداد.

وتوصلت "الهندسة الوراثية" للتكوين السليم لتلك الخلايا الـ١٢ كلها، الذي يعتمد على إمداد الجسم بتسع مواد رئيسية، هي "الأمونيا" الموجودة في الحليب بنسبة ١/١٠٠٠ في كل ١٠٠ سم من الحليب، و"الحديد" و"الفضة" المتوافران في الخضروات والفاكهة، و"البروتين الحيواني" في اللحوم، و"الأوميجا ٣" في الأسماك، و"أيدروبروميد الفضة" في الجبن المُشبَّع بالكالسيوم، إضافة إلى "السفرجل وعسل النحل"، و"الصمغ" الذي يدخل بدوره في تكوين أغذية الأطفال في أوروبا وأمريكا. ولا تتوافر تلك المواد اللازمة لاكتمال نمو الخلايا الجذعية حاليًا إلا في ٢٠ دولة فقط، بفضل تطور الهندسة الوراثية فيها.

واعتبارًا لِما توصلت إليه آخر أبحاث الخلايا الجذعية، من أن عدم توافر تلك العناصر التسعة للناشئين يُؤدي إلى ضعف تكوين تلك الخلايا وصولاً

للشيخوخة المُبكرة، فإن دور الهندسة الوراثية في تحقيق النمو الصحيح للكائن البشري يعدّ مصيريًّا. وإذا علمنا أن تسعًا من الخلايا الجذعية هي خلايا الجهاز العصبي المركزي والفص الأيسر للمخ، تمكَّنا من إدراك دور الهندسة الوراثية في تمايز البشر عن بعضهم في قوة التفكير، التي هي أساس التطور الحضاري والمجتمعي.

مستقبل الهندسة الوراثية

وعلى ذلك فإن "التغذية العلاجية" ترتكز أيضًا على الهندسة الوراثية، حيث إن "أيدرو بروميد الفضة" الموجود في الجبن المصنوع من اللبن دون إضافة دهون نباتية هو فيصل عمل الكبد، لأن إفراز هرمون "التستوبروفين الثنائي" المنشط للكبد والمانع لتليُّفه وتراكم الدهون عليه، يعتمد على إمداد الجسم بتلك المادة بمعدل ١٣ ملليمترًا يوميًّا. كما أن "الصمغ العربي" يبطِّن جدران المعدة والأمعاء ويمنع تقرحاتها. وتعدّ الهندسة الوراثية مسؤولةً عن إنتاجه بصورة كمية، حيث إن الناتج غير المكوَّن منه في السودان والقرن الإفريقي لا يجاوز ١٢٠٠ طنًّا، بما لا يلبي سوى ١٥٪ فقط من الاحتياجات العالمية.. ولكن تكوينه وراثيًّا بدمج الكروموزومَين فيه مع الكروموزومَين التي يحويهما لحاء شجرة السنط، مكَّن تعميم زراعته في الأجواء المشابهة لأجوائه الأصلية، كالمكسيك وحوض الأمازون البرازيلي، الذي صار يُنتج وحدَه أكثر من ٤٠ ألف طن من الصمغ، ليُنصَح به لأساتذة الرياضيات. إنه يوفر لزوجة الخلايا المخية بما يرفع عدد الإشارات الصادرة عن المخ لـ٤٠٠ إشارة/دقيقة بدلاً من ٢٧٥ إشارة فقط في أغلب البشر، بما يساعد أساتذة الرياضيات على التركيز في حل المعادلات الرياضية لخمس ساعات متواصلات. وهو المعدّل الذي تتطلبه اختبارات المعادلات الخوارزمية المشغِّلة لخطوط الإنتاج في مصانع "الهاي تك".

تداخلت الهندسة الوراثية أيضًا في تحديد الصفات الوراثية لعسل النحل، التي تعني تحديد لونه وطعمه ونسبة السكر فيه. وجرى التدخل الوراثي في العسل بمضاعفة عدد كروموزومات الخلية الرئيسية لملكة النحل لخمس خلايا بدلاً من اثنين في الحالة العادية، ما أدى لتنشيط خلايا النحل ٢٠ ضعفًا، كما أمكَنَ إكسابه طعم

hiragate.com

الفاكهة حسب الذَّوق بحقن ذكور النحل بعنصر الأمونيا الموجود في اللبن مضافًا إليه "سوليفات النحاس".

وتم أيضًا تعميم فائدة "الأوميجا ٣" في العالم، بعد تلقيح خلايا "سمكة الرنجة" بـ"الأيوديك" المشبَّع بـ"نترات الفضة"، ما مكَّن من استزراعها في البحار الدافئة، بعد أن كانت لا تعيش إلا في شمال المحيط الأطلسي وخلجان أوروبا وبحارها. وظهرت أيضًا فوائد جديدة للسفرجل في زيادة معدَّلات التركيز لدى الأطفال والمراهقين في الدول التي تقرِّر مناهج تعليمية قاسية، كـ"كوريا الجنوبية" التي يطالَب التلميذ فيها بحلّ ٣٠ معادلة رياضية في الساعة، حيث صُنعت أقراص من خليط السفرجل وحبوب لقاح جنين القمح المكوَّن وراثيًّا يتناولها الصبيان في مرحلة البلوغ، مما أدى لزيادة إنتاج الخلايا الدماغية لديهم بنسبة ٧٠٪، إضافة لزيادة حجم تلك الخلايا بنسبة مماثلة، ما أدى لتكوين قاعدة من متخصصي الرياضيات في دولٍ -ككوريا الجنوبية والسويد- تعدّ بمئات الآلاف، كافية بدورها لتشغيل ١٠ آلاف خط إنتاج لصناعة الـ"هاي تك" في كوريا الجنوبية وحدها.

وتَجرُّ الإشارة للسفرجل إلى كشف تم في ٢٠٢٣م عن تأثيره في التمثيل الغذائي للإنسان، الذي يعني امتصاص الدم لكامل الفائدة الغذائية من الطعام. وقد أثبت فريق بحثي فرنسي، أن المواظبة على إطعام الأطفال -من عمر ٦ سنوات إلى ١٤سنة- مُربَّى السفرجل على الريق، يؤدي إلى بناء ٧٠٪ من الخلايا الجذعية بشكلٍ سليم في مرحلة الطفولة، وهي خلايا العصَب السمبثاوي، والخلية اللبنيَّة التي يختص بها ثدي المرأة، وخلايا الفصّ المخّي الأيسر المسؤولة بالترتيب عن تقوية عضلات الجسم، وإفراز هرمون الأنيروبرفين (هرمون الرجولة) الذي يتكون منذ مرحلة الرضاعة، وتنشيط ذاكرة الدماغ المسؤولة عن التحصيل، بما يجعل من الخلايا الثلاث أساس النشاط البشري.

إن السفرجل بإضافة "أيدرو اليوديك الأحادي" إليه بنسبة ضئيلة، هو المكوِّن الرئيسي لعقار "الأوكاسيل" المستخدَم في حقن "الوريد الدماغي" المسؤول عن جودة الإبصار، الذي يجرِي حقنه إذا زادت "المياه

البيضاء" على القرنيَّة، المسبِّبة فقدان البصر إذا زادت نسبتها عن ٢٠ ملليمتر.

ويُذكر أن "الأيدرو يوديك الأحادي" هو أيضًا ناتج الهندسة الوراثية، حيث يُستخلَص بإضافة لحاء "نبات الأيدروم" المكوَّن وراثيًّا بتلقيح "سُمّ الأكونتين" الحاوي للسيانيد الشديد السُمِّيَّة بعنصر الباريوم إلى عنصر اليود الطبيعي. وهو ما صار يستخدَم أيضًا في تغيير لون قرنية العين، في إطار عمليات تجميل ناجحة أجريت منذ ٢٠١٨م في السويد، بما يعدّ نجاحًا فيما يتعلَّق بالبصمة الوراثية، حيث إن اللون الأخضر للقرنية -مثلًا- يرتبط بأجناسٍ تعيش في شرق أوروبا تحوي خلاياها تركيبًا كروموزوميًّا مختلفًا (٤٦ كروموزومات في الخلية الواحدة)، بدلًا من اثنين في أغلب البشر. وهذا يؤدي لتمثيلٍ غذائي أكبر للبروتينات الحاوية نسبة كبيرة من صبغة الكاروتين ذات اللون الأخضر، بما يُكسِب أعينهم ذلك اللون. وأثبت باحثون سويديون أيضًا، أن حقن العين بالأيدروم المكوَّن وراثيًّا، كفيلٌ بإكسابها اللون الأخضر في إطار عملية تجميل آمنة لا تستغرق أكثر من ١٥ دقيقة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(١) الفلاحة، ابن بصَّال الأندلسي، معهد مولاي الحسَن، تطوان ١٩٥٥م.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين الدميري، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٦م.

(٣) مجموعة مقالات بالفرنسية عن "تأثيرات الإكساب الوراثي على مستقبل البشرية"، المجلة العلمية، جامعة نيس ٢٠٢٣م.

hiragate.com

النار تحرقني أينما وقعتْ!

لماذا لا نحسُّ بهموم العالم الإسلامي؟ الحرائق تلتهم أجزاء من جسم العالم، ولكن كأن الحرائق لا صلة لنا بها. هناك مقولة في اللغة التركية تقول "النار تحرق المكان الذي تقع عليه"؛ إنها -في الحقيقة- مقولة أنانية، وخاسر من فكَّر بهذه الطريقة. إنما المؤمن الحق يقول "النار تحرقني أينما وقعتْ!". إنْ وقعتْ بالقرب مني تحرقني أكثر، وإنْ بعدت تحرقني كذلك.. تحرقني النار التي وقعتْ في أيّ مكان وفي أيّ بقعة من العالم.

كونوا على يقين بأن أي نار تقع على أي مكان، تشتعل في داخلي كالجمر المتقد.. هكذا يكون المؤمن، وبهذه المشاعر يتنفس، وما عدا ذلك هيجان للأنانية فقط.

عندما يُصبَغ العمل بالإيمان

علينا أن نحاسب أنفسنا في كل لحظة.. علينا أن نبحث عن صفاء قلوبنا إذا حلّت بنا المصائب. لا تشغل سمعك بأي نظرة احتقار أو أي كلمة خبيثة.. لا تومئ برأسك لافتراء مشيرًا "قد يكون.. من المحتمل!". إن سلوكًا كهذا، دعوة للبلاء واستجلاب المصائب، دعوة واحدة يصاحبها ألف بلاء ومصيبة. لذلك، كان نبينا سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، يستغفر الله ﷻ في اليوم أكثر من سبعين مرة. فكان رسول الله ﷺ يُنشئ الصُّوبات "للمستحيلات" ويحوِّطها بالأسوار.. اللهم لا تعذِّبنا بذنوبنا، واغفر لنا يا غفار، واستر عيوبنا يا ستار، واعفُ عنا يا عفو يا الله.

إن الصِّدْق صفة المؤمن، لذا يجب على المؤمن أن يتحلى بالصدق في كل حركاته وسكناته، ولا يفتأ يردده على لسانه ويلازمه في حلّه وترحاله.. فإذا ذبل قلب المؤمن ومال للتلاشي والأفول، وفَقَد روحه وذهبت نضارته؛ يجب عليه الإسراع إلى نفخ الروح فيه وإحيائه بـ"الصدق".

إن حفاظ المرء على إيمانه -بعد الإيمان بالله- مرهون بتصرفاته وأفعاله.. لأن الإنسان يحيا بـ"العمل الصالح"، و"العمل المصبوغ بالإخلاص"، و"العمل الذي يستهدف رضا الله تعالى".

إذا أصيب الإنسان بالجمود واستأسره الخمول، فلا مناص -عندئذ- من ذهابه أدراج الرياح، ثم تساقطه كالأوراق التي حلّ عليها فصل الخريف. لقد أُلقينا -الآن- في الجُبِّ كالنبي يوسف عليه السلام، والتقمَنا الحوت كالنبي يونس بن متى عليه السلام.. ما العمل للخروج من هذه المشكلة إذن؟ يجب البقاء على الحركة الدؤوبة، والعمل الدائم دون فتور.

إذا لم يغذَّ الإيمان بالحركة، بهتَ لونه، وضعف بريقه، وذهب أدراج الرياح ليتلاشى كأوراق الشجر.. فإذا توقفتْ الأشياء عن الحركة أمام الزهور والورود، حُكم عليها بالذبول، وصارت سمادًا في جوف الأرض.

لو أنكم جمعتم الهممَ وبذلْتم الطاقات، فذلك يعني دعوة واستدعاء لتجلي سر الأحدية في نور التوحيد.. السير الدائم، السير الدائب، السير المستمر.. يجب المواظبة على السير؛ حتى لا يُحكَم علينا بالزحف الدائم على البطون ومن ثم الذلّ والهوان المستمر. ■

(*) هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ فتح الله كولن الخاصة. الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

سعيد بوعيطة*

التصوف وبناء التسامح
التجربة المغربية نموذجا

تأثرت التجربة الصوفية في المغرب على مستوى الممارسة بطبيعة وخصوصية الوسط المغربي، وأيضًا على مستوى الحرية الفكرية ومدى الانفتاح على الآخر. لذلك، حفلت الممارسات الصوفية المتنوعة بنماذج من الصوفية ينتمون إلى مختلف الطرق المعروفة بصموا هذا المجال بسلوكيات معينة، تميل إلى السلوك الأخلاقي وتعبئة مختلف

الشرائح الاجتماعية، عكس ما كان سائدًا في المشرق والأندلس في بعض مراحل التاريخ من ميل التصوف إلى الفلسفة والإشراق. لذلك، فإن التصوف في المغرب يطبعه التوجه السني المعتدل، بعيدًا عن الانزياح إلى الفلسفات الصوفية المختلفة.

ونظرًا لسيادة الفقه وتأثيره في تفاصيل الحياة اليومية، واعتبارًا للعلاقة الوطيدة والمنسجمة التي تطبع الثوابت الدينية المشتركة عقيدة ومذهبًا وسلوكًا، فإن مختلف التجارب الصوفية المغربية تبقى محصورة في السلوك الأخلاقي والتربية الروحية وتزكية النفوس وتطهيرها. من هنا، يمكن التأكيد على أن المبادئ السامية والقيم النبيلة التي يعمل التصوف على ترسيخها، من خلال تجارب الطرق الصوفية المنتشرة بالمغرب، تعبر في الغالب عن قيم الوسطية والاعتدال والمحبة والتسامح وإشاعة الأمن والسلام.

التصوف والقيم الإسلامية

يعزى هذا التسامح الذي يتميز به التصوف في التجربة المغربية، إلى عدة عوامل ومبادئ سامية تنهل من حقيقة الإسلام، من أهمها:

١- الفطرة: لأن الدين يساير طبيعة الإنسان في النزوع إلى التدين السليم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم:٣٠). إنه دين الوسطية والاعتدال، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)، والوسط هو الخير والفضل.

٢- اليسر: قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥)، ويقول رسول الله ﷺ: "إن الدين يسر ولن يشادَّ الدينُ أحدٌ إلا غلبه، فيسّروا وقاربوا وأبشروا" (رواه البخاري).

٣- الأخلاق: إنه دين بحث على السلوك الحميد الذي ينبغي أن يكون قائمًا على الفضائل والمكارم وحسن الأخلاق، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤). إنه دين يدعو إلى التعارف، أي إلى التجمع والتساكن وتبادل المنافع والمصالح، وهو بذلك لا يرى فضلاً لأحد على الآخر إلا بالتقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

إن ثقافة التسامح والسلام، تعدُّ مبدأ راسخًا في البناء الصوفي الذي تبناه صوفية المغرب، بما تعبر عنه من فرص للتوسعة على الناس والرحمة بهم وأخذهم باللين واليسر؛ من أجل تعزيز التربية المتشبعة بمعاني المحبة.

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣).

٤- المودة والأخوة: ألحَّ القرآن الكريم على هذه القيم في سياق دعوته الناس إلى التواصل والتسامح، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(التوبة:٧١)؛ لعل هذه الخاصية هي التي جعلت المجتمع المغربي مجتمع التكافل الاجتماعي، إذ التكافل مظهر للأخوة الجالبة لمبدأ التسامح والتضامن.

تشير مجمل هذه الخصائص الإسلامية، إلى أن ارتباط التجربة الصوفية المغربية بها، أسهمت في ترسيخ قيم السلم والسلام في المجتمع المغربي؛ حيث بينت التجارب العامة أن رجال التصوف والسلوك، الذين تنطوي أنفسهم على السلم وحب السلام، يستطيعون أكثر من غيرهم الإسهام في نشر السلام وتعزيزه في محيطهم. والقرآن الكريم حين يبين أن الناس جميعًا ينتمون إلى الأسرة الإنسانية الكبيرة وينحدرون جميعا من أصل واحد، فإن ذلك يعني أن الإنسان الذي يبحث عن السلام، لا يبحث عنه لنفسه فحسب بل للآخرين أيضا.

لهذا، فالسلام من شأنه أن يوحد نفوس البشر، الذين لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك وحدهم من دون هداية من الله الذي يريد الخير لكل الناس. إن حرص الإسلام في تعاليمه على غرس إرادة السلام في نفوس أتباعه وتربيتهم على ذلك، لا يعني إقامة السلام فيما بينهم فحسب بوصفهم أتباع دين واحد، لكنه يعني أيضًا إقامة السلام مع كل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم وألوانهم.. كما قال الرسول ﷺ: "وتَقرأ السلامَ على مَن عرفتَ ومَن لم تَعرف" (رواه البخاري). وقد جاء معنى السلم المجتمعي واضحًا أشد الوضوح في

الحديث الشريف الذي رواه النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم، كمَثَل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو تَداعى له سائر جسده بالسَهَر والحُمَّى" (رواه البخاري)؛ يدعو هذا الحديث الشريف إلى استعمال الرحمة للخلق كلهم، مما يبعث الأمن والسلام والاطمئنان في نفوس الناس. وهذا ما يحرص رجال التصوف على تمثله واستيعابه بقوة، والعمل على إفشائه ونشره.

وهكذا، فإن ثقافة التسامح والسلام، تعدُّ مبدأ راسخًا في البناء الصوفي الذي تبناه صوفية المغرب، بما تعبر عنه من فرص للتوسعة على الناس والرحمة بهم وأخذهم باللين واليسر؛ من أجل تعزيز التربية المتشبعة بمعاني المحبة، والمتطهرة من كل ميل إلى الكراهية والصراع، حيث تسعى الممارسة الصوفية بذلك، إلى الانتقال من تحقيق صلاح الفرد في نفسه وحماية فطرته، إلى ترسيخ السلم وإشاعة الأمن العام.

مظاهر التسامح في التجربة الصوفية المغربية

١- العدالة الاجتماعية:

يعتبر العدل من أهم عناصر الوسطية في الإسلام، وجاء في الأثر "الوسط: العدل". من ثم اقتبس الفكر الصوفي هذا المبدأ وجعله عنصرًا جوهريًّا في منهجه الوسطي. وسعى المتصوفة المغاربة إلى العدالة من خلال سلوكياتهم؛ حيث اعتبروها ضرورية لإقامة مبادئ التسامح والتوازن داخل المجتمع. فكانوا يناهضون الظلم والعدوان من أجل تحقيق مقاصد العدالة بطرق سلمية بعيدة عن كل أشكال الغلو والتطرف. ومن ذلك قيام زعماء وشيوخ التصوف بمبدأ الوساطة بين أطراف النزاع واسترداد الحقوق لأصحابها، وإصلاح ذات البين بين الأزواج والجيران من خلال نهج أسلوب الليونة والتسامح، وتحقيق السلم الاجتماعي.

٢- حق الاختلاف:

حق الاختلاف استنادًا إلى المبادئ القرآنية والتوجيهات النبوية، القاضية بضرورة التعارف والتفاهم والتعاون بين الناس، دون تمييز بين الأجناس والأعراق والمستويات الاجتماعية. ينهض التصوف بالمغرب بقيمة التسامح إيمانًا واقتناعًا بأهمية إنتاج فضاء مشترك، يقبل رأي الآخر على الرغم من الاختلاف معه. ذلك أن التصوف كما يقول الإمام الجنيد: "كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب الذي يظلل كل شيء وكالمطر يسقي كل شيء"[١]. وقد قدمت التجربة الصوفية المغربية، نموذجًا مثاليًّا في اتجاه حب الخير للآخرين والتسامح معهم واحترام المخالفين. ولا شك أن الاقتناع بحق التعدد والتنوع والاختلاف في المواقف والآراء، يعتبر في حد ذاته مبدأ وسطيًّا يقع بين موقفين متطرفين.

٣- الارتباط بقضايا المجتمع:

مما يقيم الحجة على الوسطية في التجربة الصوفية المغربية، ابتعادها عن سلوك نهج الرهبانية والانعزال عن الحياة. ذلك أن أغلب أتباع الطرق الصوفية بالمغرب، ارتبطوا بواقع مجتمعاتهم وتعلقوا بالسياق المعيشي والعمل اليومي كباقي الناس، مما يجعل من التجربة الصوفية المغربية تجربة حيوية متحركة، بعيدة عن المواقف التواكلية التي تبقى عالة على الغير بدعوى التفرغ للممارسة الروحية. وذلك يؤكد سمة الانفتاح في التصوف المغربي، من خلال الحرص على ممارسة التصوف الجماعي ونبذ النزعة الفردية الانعزالية، وهي أخلاق لا تتضح معانيها ومظاهرها، إلا بالتعامل مع الناس والصبر على أذاهم، مصداقًا للحديث النبوي الشريف: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم" (رواه ابن ماجه). لذلك، يقومون بإحياء وتنظيم مهرجانات ومناسبات، تعكس حقيقة التصوف الجماعي المتفتح على كل شرائح المجتمع وفئاته. كما أنهم أكثر تدخلاً في الجانب الاجتماعي التضامني بالإيواء والإطعام، ما يجعل منها ممارسة صوفية جماعية تنبني على روح الجماعة الصالحة المندمجة في المجتمع[٢].

٤- الوسطية والاعتدال:

تعتبر الوسطية منهجًا يلازم رجال التصوف المغاربة في أغلب الحالات والأوقات، ومردّ ذلك إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، وبين الفقه والتصوف. وقديمًا

hiragate.com

قال الشيخ "زروق الفاسي" (ت ٨٩٩م): "من تصوف ولم يتحقق فقد تزندق، ومن تحقق ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق". كما اشتهر الإمام "الجنيد" بقوله: "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه، لا يقتدى به". لهذا، فلا شك أن اعتماد الوحدة المذهبية فكرًا وتشريعًا، قد ساعد رجال التصوف بالمغرب على الاعتدال، لتحقيق وحدة سلوكية مطبوعة بالطابع الاجتماعي المنفتح. كما أن الاستناد إلى المذهب المالكي، زاد من تعميق هذا الاعتدال، مما جعل رجاله ينأون بأنفسهم عن الغلو في الفكر والسلوكيات المتشددة. وظلت هذه المزاوجة بين التصوف والفقه، في ظل بيئة سُنِّية تحصن الفكر الصوفي ضد أي اختراق للتطرف والتشدد. وإن الذي يميز التصوف في المغرب، التشديد على الجانب السلوكي والنزوع إلى التصوف الأخلاقي. وبالتالي فالتجربة الصوفية المغربية، لم تضع لنفسها إطارًا مرجعيًّا خارج الكتاب والسنة، ومنهج الأئمة الأعلام من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين من علماء السلوك والتربية والمعاملات والأخلاق.

قيمة التسامح في الممارسة الصوفية

يرتبط التسامح بما هو مبدأ في البناء الحضاري للإسلام بما في ذلك الممارسة التدينية، من فرص للتوسعة على الناس، ورفع الحرج عنهم، وأخذهم باللين واليسر.. وهو أيضًا الانفتاح على ما عند الآخر والتساكن معه، وما في الإسلام من ترغيب في الخير وتنفير من الشر. إنه الحنيفية السمحة التي هي خلق جميع الأنبياء، مما يجعل قيمة التسامح تحتل موقعًا مركزيًّا في الفضاء الصوفي العملي.

واستنادًا إلى قيمة التسامح، يقر الفكر الصوفي مبدأ التكافؤ بين المسلمين، ويجعل معيار التفاضل بين الأتباع هو التقوى؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وبفضل هذا المبدأ تلغى كل أنواع العصبيات العنصرية، سواء كانت عصبية قومية أو قبلية أو لغوية. وهذه الرؤية الصوفية لمكانة الإنسان في الحياة، تختلف كل الاختلاف عن الرؤية العنصرية الضيقة التي تجعل العصبيات المتلاحمة تقف موقف المواجهة والمغالبة بحثًا عن مكاسب ومطامح مادية وأدبية.

إن نظر الصوفي إلى الوجود، لا تتحكم فيه آليات معرفية خاصة أو معطيات موضوعية، وإنما تتحكم فيه نزعة روحية تتأسس على الذوق والكشف الذي يستشرفه الإنسان بواسطة المجاهدة. وإن القول الصوفي بالتسامح ليس مجرد موقف شرعي أخلاقي تمليه آداب معاملة الخلق، بل هو قبل ذلك موقف ديني معرفي أصيل. فهو بما يعبر عنه من تساهل وإيثار وتجاوز وعفو واعتراف بالآخر، مأمور به في القرآن والسنة؛ لأن الثقافة الصوفية حمولة معرفية وتراثية، توثق وترسخ قيم التعايش والتسامح ومحبة الآخر[٣].

ندرك قيمة التسامح عندما نتأمل واقع الحياة الإنسانية اليوم، خاصة في كثير من البلدان وما يكتنفها من صراعات وخلافات مصدرها الكراهية ونبذ الآخر، لا لشيء إلا لأنه يخالف أفكارنا ولا يخدم مصالحنا، فيغيب التواصل ويقل التعارف، وينتج عن ذلك اختلال الأمن وغياب الثقة بين الناس وفتور العلاقات الإنسانية. لكن كان من مقاصد التصوف المغربي، إرساء نوع من الأمان النفسي والاجتماعي في النفوس. وإذا كان التصوف في المغرب يؤسس قبل كل شيء للتواصل مع الله تعالى؛ عبر الصلاة التي هي صلة العبد بربه، وعبر صنوف أخرى من العبادات، فكيف يمكن أن يتعلم المرء هذا التواصل وينمّيه إذا فقد التواصل مع الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالحوار والكلمة الطيبة والرحمة والإحسان؟ ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(١) الرسالة القشيرية، القشيري (عبد الكريم)، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود الشريف، دار المعارف، القاهرة، (ب ت)، ص:٢٨١.

(٢) بين التصوّف والحياة، الندوي (عبد الباري)، طبعة دمشق ١٩٦٣م، ص:٦١.

(٣) مدارات صوفية، العلوي (هادي)، ط١، دار المدى، دمشق ١٩٩٧م، ص:١٩.

hiragate.com

صلاح عبد الستار الشهاوي*

الأجوبة المسكتة

من جميل ما توارثناه عن لغتنا العربية الإيجاز وروعة التعبير. فمن قديم والعرب يرون بلاغتهم في الإيجاز، وروعة تعبيرهم في الكلام القليل العامر بالمعاني والدلالات. ويتجلى جمال العربية من خلال ردودهم البليغة المسكتة الموجزة؛ لأن سامعها يُرمى بها فلا يجد جوابًا ولا يملك نطقًا، لأن إحكامها وصياغتها وطريقة صكها بهرته فأخرسته، ولأنها عادة تجيء على غير توقع من متقبلها، فكأنه أصيب في مقتل فابتلع دهشته وصمت، ويطلق عليها

"الأجوبة المُفحمة"، لأن قائلها يضع بها في فم من يسمعها فحمًا فلا يحير جوابًا. والأجوبة المسكتة، أجوبة على أسئلة جاءت بعضها من نية الاختبار المنطوي على هدف التعجيز، مع الأمل في أن يكشف هذا عن علم السائل وسعته، وقصور علم المسؤول لغرض السائل في التباهي بعلمه.

وقد تنبه العرب القدماء إلى مكانة الأسلوب في الحديث، وأشادوا باللسان القادر على تطويع الكلام والوصول إلى المآرب في يُسر، وتجاوز الأذن بلا إذن، وأسْرِ القلب دون عسر، وذموا اللسان الذي يرمي بصاحبه في المهالك، وكان أبو بكر الصديق ﷺ كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

احذر لسانك أن تقول فتُبتلَى
إن البلاء موكل بالمنطقِ

ويقول الشاعر المخضرم الأعور الشنّي:

ألم تر مفتاح الفؤاد لسانه
إذا هو أبدى ما يقول من الفم؟

ويقول حكيم الجاهلية زهير بن أبي سلمى في معلقته:

وكائن ترى من صامت لك معجبٍ
زيادته أو نقصه في التكلمِ
لسان الفتي نصف، ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ولما كان العرب يؤثرون من القول ما جاء وجيزًا بليغًا مركزًا، لذا نراهم ينفرون من فضول الكلام وحواشيه، واشتهر عنهم قولهم: "خير الكلام ما قل ودل".

يقول الفراء: "وجدنا للغة العرب فضلاً على لغة (لغات) جميع الأمم، اختصاصًا من الله وكرامة أكرمهم بها. من خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات، ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسعوا فيها، فقالوا للضرب في الوجه: لطم، وفي القفا: صفع، وفي الرأس إذا أدمي: شج، فكان قولهم: لطم أوجز من ضرب على وجهه".

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: "لم كانت العرب تطيل؟ قال: ليسمع منها، قيل: فلم توجز؟ قال: ليحفظ عنها". وقال جعفر بن يحي: "إذا كان الإيجاز كافيًا، كان الإكثار هذرًا. وإذا كان التطويل واجبًا كان التقصي عجزًا".

يتجلى جمال العربية من خلال الردود البليغة المسكتة الموجزة؛ فسامعها يرمى بها فلا يجد جوابًا ولا يملك نطقًا، لأن إحكامها وصياغتها وطريقة صكها بهرته فأخرسته، ولأنها عادة تجيء على غير توقع من متقبلها.

ويقول امرؤ القيس:

أفاد وجاد وساد وقاد وزاد وعاد وزاد وأفضل

كلمات قليلة لمعان كثيرة، معان تحتاج عند غير ناطقي اللغة العربية إلى مجلد يشرح مراميها.

الجواب المسكت

في تعريف الأجوبة المسكتة يقال: "هي مجموعة من الأجوبة الحاذقة الذكية، يردُّ بها المسؤول على من سأله ليفحمه بالجواب المسكت". والجواب المسكت: "قول بليغ مرتجل يعتمد على المشافهة، يقصد به تصحيح الكلام، أو إثبات حقيقة، أو دفع شبه مع الإصابة والسرعة في الإجابة.

أما سمات الجواب المسكت فهي كالتالي:

أ- السرعة في الرد: وهي السمة الأبرز، فالجواب المسكت هو وليد لحظته، لأن الجواب بعد نظر وتفكر لم يكن بشيء وعد عيًّا لا يعتد به.

ب- الإصابة في القول: من أهم مميزات الجواب المسكت، وهي سبب الإسكات والإفحام فيه.

جـ- الإيجاز في التعبير: هذه السمة لا تقل حضورًا وأهمية من سابقتيها، لأن السرعة في الرد تتطلب تكثيفًا للمعاني وتقليلاً للألفاظ، حتى يستطيع المتكلم أن يصل إلى خصمه بأسرع الطرق وأنجعها.

د- حسن البيان: وذلك باختيار الأسلوب البلاغي الأنسب لأدائه، والموازنة بين الألفاظ وانتقاء اللائق منها.

هـ- إفحام الخصم: وهي نتيجة للسمات الأربع السابقة، وهي قطع الطريق على المخاطب للرد أو الاستعداد للرد. فالأجوبة المسكتة تشبه الضربة القاضية.

هذه هي السمات الخمس للأجوبة المسكتة، وهي كما أجملها أبو حيان التوحيدي في قوله: "أحسن

hiragate.com

الجواب، ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى، وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجة.. أما حضور الجواب فلِيكون الظفر عند الحاجة، وأما إيجاز اللفظ فلِيكون صافيًا من الحشو، وأما بلوغ الحجة فلِيكون حسمًا للمعارضة".

وباختصار، فإن الأجوبة المُسكتة تأتي ردًّا على خطأ أو تعدٍّ في القول، والبادئ أظلم.

وفي الأجوبة المسكتة نجد المتعة والتسلية، بالإضافة إلى الحكمة والبديهة لكثرة ما تضم من أجوبة هزلية وفكاهات طريفة ونكات ظريفة، مما يدور في مجالس أنسهم ومنتدياتهم الخاصة والعامة.

وهذه باقة من أجوبة الأعراب والمتكلمين والفلاسفة والحكماء والزهاد والشعراء، تدل دلالة قاطعة على البلاغة في التعبير، والسعة في الفكر، والقوة في الحجة، والفصل في الخطاب.. ومع هذه الفصاحة والبلاغة والحكمة التي تبدو في كثير من الأجوبة، نجد أدبًا وطرافة ودعابة وظرفًا وخلطًا بين الفكاهة والجد.

• قيل إن رجلاً سأل العباس ﷺ: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر، وأنا ولدت قبله.

• لما أراد عمر بن الخطاب ﷺ التوجه إلى الشام، قال له رجل: أتدع مسجد رسول الله؟ قال: نعم، أدع مسجد رسول الله لصلاح أمة رسول الله.

• قال ابن الكواء لعلي بن أبي طالب ﷺ: كم بين السماء والأرض؟ قال: دعوة مستجابة.

• كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ المائة والعشرين، وقد تأخر إسلامه، فقال له مروان بن الحكم: تأخر إسلامك يا عماه حتى سَبَقَكَ الأحداث. فقال: والله يا ابن أخي لقد هممت بالإسلام غير مرة، كل ذلك يردني أبوك يقول: أتترك دين الآباء والأجداد؟! فأفحمه.

• سأل رجل الأحنف بن قيس فقال: بم سُدْتَ قومك؟ فقال: بتركي ما لا يعنيني من أمرك كما عناك من أمري.

• دعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى غدائه فقال له: قد تغديت. قال عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام. فقال: يا أمير المؤمنين بي فضل، ولكني كرهت أن آكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين.

• لما ولّى "المأمونُ" "يحيى بن أكثم" قضاء البصرة، وكان من أبناء نيف وعشرين سنة، أراد بعض أهل البصرة أن يعيّره بذلك ويضع منه. فقال: كم سن القاضي؟ فقال: سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ مكة.

• جاء رجل إلى ابن سرين فقال له: إنك نلت مني، فقال ابن سيرين: نفسي أعز علي من ذلك.

• قيل لرجل: إنا نرى بعض الناس يقول فيك سوءًا و لا نراك تقولُ فيهم إلا خيرًا. فقال: إنما أُعطيهم مما عندي.

• قال رجل للشعبي: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشعبي: إن ذلك نكاح ما شهدناه.

• تكلم شاب يومًا عند الشعبي، فقال الشعبي: ما سمعنا بهذا. فقال الشاب: كُلّ العلم سمعت؟ قال: لا، قال: فشطره؟ قال: لا، قال: فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه.. فأفحم الشعبي.

• حُكي أن غلامًا لَقيَ أبا العلاء المعري فقال: من أنت يا شيخ؟ قال: فلان، قال: أنت القائلُ في شعرك:

وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

قال: نعم، قال: يا عماه إن الأوائل قد رتبوا ثمانية وعشرين حرفًا للهجاء، فهل لك أن تزيد عليها حرفًا، فدهش المعري ولم يحر جوابًا.

• جعل ابن السماك يومًا يتكلم، وجارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده، قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: إلى أن يفهمه من لا يفهمه، يكون قد ملَّه من فهمه.

• رُئِي أحدهم يسأل في قرية، فقيل له: ما تصنع؟ فقال: ما صنع موسى والخضر (يعني أنهما استطعما أهل قرية).

• ولي العلاءُ بن عمرو بلاد سارية، وكان جائرًا، فأصاب الناس القحطُ وأمسكت السماء قطرها، فخرجوا يستسقون.. صعد العلاء المنبر فقال: اللهم ارفع عنا البلاء والغلاء.. فوثب معتوهٌ كان بها فقال: والعلاء؟ فإنه شر من الغلاء، وأغلظُ من البلاء. فضحك الناس، وخجل العلاء وانصرف.

• رأى الحسن على مالك بن دينار كساء صوف

hiragate.com

يختال به، فقال: أيعجبك هذا الطيلسان؟ قال: نعم، قال: إنه كان على شاة قبلك!

• ضم مجلس سفيان الثوري عددًا كبيرًا من العلماء وطلبة العلم، فبكى طالب وقال: بعد مجالستك أصحاب رسول الله ﷺ تجالس إيانا، فما أعظم مصيبتك! فنظر له سفيان وقال: يا غلام سيحتاجك السلطان!

• قال مقاتل بن سليمان وقد دخلته أبهة العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفل من الثرى، فقام إليه رجل من القوم فقال: ما نسألك عما تحت العرش ولا أسفل من الثرى، ولكن نسألك عما كان في الأرض وذكره الله في كتابه، أخبرني عن لون كلب أهل الكهف، فأفحمه.

• سأل رجل الفضل بن عياض وقد كف بصره: كيف وجدت ذهاب بصرك؟ فقال: أصبت فيه راحتين؛ عصمهما عن محارم الله، ولا أنظر إلى ثقيل.

• قالت زوجة يحيى بن خالد لزوجها: ما رأيت ألأم من أصحابك! إذا استغنيت لزموك وإذا أعسرت تركوك. فقال: هذا من كرم أخلاقهم يأتوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال الضعف منا عنهم.

• قال المنصور لبعض أهل الشام: ألا تحمدون الله إذْ دفع عنكم الطاعون منذ ولينا عليكم؟ فقال الشامي: إن الله أعدل من أن يجمعكم والطاعون علينا.

• جاء رجل يمتحن الخليل بن أحمد الفراهيدي بمسألة، فجعل يفكر ويطيل التفكير وأبطأ في الجواب، فأعجب الرجل بنفسه وقال للخليل متفاخرًا متباهيًا: لِمَ تكثر التأمل؟ فليس في هذه المسألة من الصعوبة ما يستدعي إطالة النظر، فقال الخليل: لقد عرفت مسألتك وجوابها، وإنما أفكر في جواب أسرع لفهمك، فأبقيت نفسي بما قصدت إراحتك به، فخجل الرجل وانصرف.

• جاء رجل إلى وجيه من وجهاء بلده فقال: أنا جارك وقد مات أخي فأُمر لي بكفن. قال: لا والله ما عندي شيء، ولكن عد إلينا بعد أيام فسيكون ما تجد. قال: أصلحك الله فهل نُمَلِّح الميت إلى أن يتيسر عندك شيء؟!

• أتى أبو موسى المكفوف مؤدب الحسن بن رجاء نخاسًا فقال له: اطلب لي حمارًا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر، إن خلا الطريق تدفق وإن كثر الزحام ترفق، لا يصدم بي السواري ولا يدخلني تحت البواري، إن كثر علفه شكر وإن قل صبر، وإن حركته هام وإن ركبه غيري نام. فقال النخاس: يا عبد الله، اصبر قليلاً فإن مسخ القاضي حمارًا أصبت حاجتك.

• قال رجل لصاحب المنزل: أصلح خشب هذا السقف، فإنه يقرقع، قال: لا تخف إنه يُسبِّح، قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد.

• قدم إلى أبي الحازم القاضي سكران ليمتحنه فقال له: من ربك؟ فقال السكران: أصلحك الله ليس هذا من مسائل القضاة، إنما هو من مسائل منكر ونكير!

• دخل أحد اللصوص بيت أحد الزهاد، فسأل صاحب البيت أين متاعك؟ قال: بعثت به إلى الدار الآخرة.

• قيل لرجل: امض معنا إلى السلطان والبس ثيابك، فقال: هذه ثيابي التي أناجي فيها ربي.

• قيل للخليل بن أحمد: من الزاهد؟ قال: من لا يطلب المفقود حتى يذهب الموجود.

• تأخر أبو الفدا الكوفي عن أصدقاء له بينه وبينهم موعد، فقال له أحدهم: ما الذي أخرك عنا؟ قال: سرق اللصوص حماري، فسأله: كيف سرقوه؟ فأجاب: وهل كنت معهم فأعرف كيف؟

• وقف سائل بقوم فقال: إني جائع، فقيل له: كذبت! فقال: جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم.

وبعد أن طوَّفنا مع نماذج مشرقة من الأجوبة المفحمة المسكتة، والخصبة الغنية من أجوبة الأعراب والمتكلمين والفلاسفة والحكماء والزهاد والشعراء، بها ما يدل دلالة قاطعة على بلاغة التعبير وسعة الفكر وقوة الحجة وفصل الخطاب.. ومع هذه الفصاحة والبلاغة والحكمة التي تبدو في كثير من هذه الأجوبة، نجد أدبًا وطرافة ودعابة وظرفًا وخلطًا بين الفكاهة والجد. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

hiragate.com

محمد زين العابدين*

مملكة النباتات

أثبت العلم الحديث قدرة النباتات على الحركة.. فالنباتات المتسلقة تتمتع بقدرة عالية على الحركة تمكنها من تسلق الدعامات. ومع توالي الأبحاث اتضح أن النباتات تحرك أعضاءها بحرية ورشاقة، وأن لها استجابات حركية تجاه المؤثرات المختلفة، بما في ذلك الاستجابات الشعورية للحب أو الكراهية، وللعناية أو الإهمال، وهو ما يوازي الجهاز العصبي في الإنسان والحيوانات الراقية.

أسرار في جذور النباتات

لجذور النباتات قدرة عالية على اختراق التربة والامتداد لأعماق بعيدة؛ فجذور نبات "الفالفا" مثلاً، يمكن أن تمتد حتى عمق ٤٠ قدمًا بداخل التربة، مستعينة بقوتها القادرة على اختراق الحوائط الإسمنتية. وتعمل الاستجابات المختلفة لجذور النباتات، على تغيير خصائص التربة؛ ومن ثم تؤثِّر على الخصائص الفسيولوجية للكائنات المستوطنة للتربة، وتلعب دورًا مؤثرًا في البيئة الأرضية،

بفعل المواد التي تفرزها والبكتيريا المرتبطة بها.. حتى إنه يمكن لإفرازات الجذور أن تُغيِّر من قابلية معادن التربة للذوبان، وبالتالي تغير الخواص الكيميائية للتربة، ويمكنها حتى أن تزيل سُمية المواد الضارة. كما أن الصمغ النباتي الهلامي الذي تفرزه الجذور، يمكن أن يسهم في تحمُّل بعض النباتات للجفاف، حيث يزيد من قدرة الجذور على نقل الماء إلى النسيج الوعائي، وتحسين امتصاص العناصر الغذائية. وبعض النباتات تكون مزودة بجذور متحورة تعرف بالجذور الهوائية، لها القدرة على الامتداد في الهواء؛ فتستطيع بذلك أن تمتص منه بخار الماء قبل أن تخترق التربة، وتقوم بوظيفة الجذر العادي، فتتفرع وتتغلظ الأجزاء الهوائية منها، فتعمل بذلك على حمل الأفرع الهوائية.. وفي الأشجار المعمرة تلتحم مع الجذع، فتبدو وكأنها جزء منه كما في جذور أشجار التين البنغالي. وتعمل جذور بعض نباتات "الأوركيد" على تعلق "الأوركيد" على أفرع الأشجار بالغابات. وتتميز هذه الجذور الهوائية بوجود نسيج يعرف بـ"الفيلامين"، له القدرة على امتصاص بخار الماء من الهواء الجوي.

وتمتد من بعض النباتات جذور متسلقة، تساعدها على التشبث بنبات آخر، أو جدار يدعمها، أو تدخل في جذع شجرة، وتمتص منه الماء؛ وذلك كما في نبات متسلق يعرف بـ"حبل المساكين"، فجذوره المحلاقية تساعده على الارتقاء للأعلى، وامتصاص الماء الذي ينقصه من شجرة أخرى.

طريقة التكاثر عند النباتات

تتفنن النباتات في اتخاذ طرقٍ لتضمن تكاثرها وحفظ نوعها؛ ويتجلى هذا بوضوح في انتشار حبوب اللقاح، وانتقالها بين الأزهار المذكرة والأزهار المؤنثة، فنجد -مثلًا- أن النباتات التي يتم فيها التلقيح بواسطة الرياح، تتميز أزهارها بصغر حجمها وإنتاجها لحبوب اللقاح بكميات هائلة، وتكون حبوب لقاحها خفيفة جافة وملساء وسهلة التطاير، ليمكنها الطيران في الهواء والوصول للأزهار المؤنثة. ومن أمثلة النباتات التي تتلقح أزهارها بالرياح، النخيل، ونباتات العائلة النجيلية، التي تتميز بشيء آخر يساعدها على التلقيح بالرياح، وهو أن

بينت الأبحاث أن النباتات تحرك أعضاءها بحرية، وأن لها استجابات حركية تجاه المؤثرات المختلفة، بما في ذلك الاستجابات الشعورية للحب أو الكراهية، وهو ما يوازي الجهاز العصبي في الإنسان والحيوانات الراقية.

حراء

مياسم الأزهار المؤنثة تكون ريشية وذات مسطح كبير، لاستقبال حبوب اللقاح المحمولة بالرياح.

وبعض الأزهار ليلية التفتح، تتميز ببتلاتها الناصعة البياض، لتجذب إليها الفراشات ليلية النشاط. وهي تنشر أزكى عطورها عند الغسق، فتنقل لها الفراشات حبوب اللقاح أثناء تنقلها بين الأزهار. وبعض زهور "الأوركيد" تتخذ بتلاتها شكل أنثى الذباب، لتنخدع ذكور الذباب وتهبط عليها بغرض تلقيح أنثاها الوهمية، فيتم نقل حبوب اللقاح لها. وبعض أنواع الزنابق التي تعيش في المناطق الخالية من الحشرات الطائرة -سوى الذباب- تفرز رائحة شبيهة برائحة اللحم المتعفن، لتجذب إليها الذباب فيساعد في نقل حبوب اللقاح لها.

وتتميز البذور بخصائص تساعدها على الانتشار عبر مناطق شاسعة، لتنبت وتنتج نباتات جديدة. فبعض البذور التي تنتشر بواسطة الرياح، تكون مزودة بجناحين، مثل بذور شجرة القَيْقب، وبعضها تكون ذات زغب يساعدها على الطيران، كما في بذور نبات الهندباء البري، وبذور أشجار الصفصاف. ويمكن أن ينتقل بعضها من خلال الطفو على الماء كما في بذور جوز الهند. وهناك نباتات تنشر بذورها بوسائل عجيبة، فثمار نباتات البلسم تقذف بذورها عند أدنى لمسة لها.

وسائل النباتات في التكيف مع البيئة

تستطيع النباتات التواجد والازدهار في كل البيئات تقريبًا، فتنمو على قمم الجبال، وفي المحيطات، وفي العديد من الصحاري، وحتى المناطق القطبية. ومن المثير للدهشة، القدرات العالية للنباتات على النمو في أماكن تبدو غير صالحة للحياة. ويمكننا ببساطة أن نلاحظ الأشجار التي تنمو من جوف الصخور، أو الشتلات التي تنبثق من باطن

hiragate.com

الأرض بعد شتاء قارس، أو النباتات التي تنمو من قلب أسفلت الشوارع، الذي يبدو غير قابل للاختراق. الحقيقة أن للنباتات قدراتها الحيوية الديناميكية المعقَّدة، التي يمكننا أن نتعلم منها الكثير من الدروس القيمة.

وبالرغم من تأثر النباتات الشديد بالرياح التي يمكن أن تؤدي لتكسيرها أو رقادها، أو تشوه أوراقها، أو سقوط أزهارها، إلا أن هناك أشجارًا شديدة الصمود أمام الرياح، وتستطيع حماية نفسها وغيرها من النباتات، من التيارات الهوائية الشديدة، ولذا نلاحظ زراعة سياج من الأشجار العالية حول الحقول، تعمل كمصدَّات للرياح، وتحمي المزارع من أضرارها، مثل أشجار الكازوارينا ذات الأوراق الإبرية القوية في مواجهة الرياح.

وتواجه النباتات التي تعيش في الصحراء ظروفًا قاسية، من تربة رملية ممتدة، إلى حرارة شديدة تضرب بقوة في الرمال الساخنة، إلى ندرة شديدة في المياه، إلى رياح عاصفة تهب من كل جانب. وبالرغم من كل هذا، فإن الصحراء تزخر بأنواع فريدة من النباتات والأعشاب، التى وهبها الله قدرات وتحورات خاصة، للتكيف مع الظروف البيئية الصعبة، ومواصلة حياتها بجسارة في قلب الصحراء. والكثير من هذه الأعشاب الصحراوية، ذات خصائص طبية فريدة نافعة للإنسان، مثل نبات "السَّكران". ومن النباتات الصحراوية التي تتحمل ظروف الجفاف، نبات "الرتم"، وهو نبات صحراوي واسع الانتشار، تسقط أوراقه بمجرد تكونها، لتنوب سيقانه الطرفية الخضراء عنها، في القيام بعملية البناء الضوئي، لتقليل فقد الماء بواسطة النتح. وتفرز أوراق بعض النباتات الصحراوية -كالمُليح- أملاحًا تساعد على امتصاص الرطوبة الجوية، وقطرات الندى ليلاً.

وفي أراضي المستنقعات رديئة التهوية، تنمو بعض النباتات التي تستطيع التكيف مع بيئة المستنقعات. وبالرغم من أنها لا تستطيع نيل كفايتها من الأكسيجين اللازم لتنفسها في هذه البيئة الغنية بثاني أكسيد الكربون، الناتج عن تحلل البقايا النباتية، إلا أن الله زودها بحيلة تستطيع أن تهرب بواسطتها من هذا الجو الخانق، حيث تخرج من أجزائها السفلية المغمورة في الطين، جذورًا عرضية تتجه لأعلى فوق سطح الماء، وتعرف بالجذور التنفسية، إذ تحتوي أنسجتها على فراغات هوائية واسعة تستطيع امتصاص الأكسيجين اللازم لتنفس نباتات المستنقعات، ومن أمثلة هذه النباتات نبات "الشورة".

النباتات تدافع عن نفسها

للعديد من النباتات القدرة على حماية نفسها بمختلف الوسائل، ضد هجوم الحشرات والحيوانات التي تسعى لالتهامها. وقد زوَّدها الله بدفاعات طبيعية وكيميائية قوية؛ فبعضها يكون مزودًا بتراكيب تعوق تغذية الحشرات عليها، كالأشواك والأوراق والأفرع المتحورة لإبر، أو الطبقة الشمعية الصلبة والشعيرات على سيقانها وأوراقها، أو الإفرازات المُرّة المنفرة للحشرات، أو الإفرازات الصمغية التي تتصيدها. وتكتسب بعض النباتات الحماية من أعدائها عبر علاقة تبادل المنفعة، حيث يوفر النبات نمطًا من التغذية لمجموعة من الحشرات، وفي المقابل تحميه هذه الحشرات من الحيوانات الأخرى.

وأحد الأمثلة على تبادل المنفعة بين نبات وحشرة، العلاقة بين النمل وأشجار "الأكاسيا"، حيث يعيش النمل داخل أشواك مجوفة على أشجار الأكاسيا، وتفرز أوراق الأكاسيا محلولاً سكريًّا يتغذى به النمل، وفي المقابل ينظف النمل الأرض حول الشجرة، ويهاجم أي حيوانات أخرى تقترب من الأشجار. وبعض نباتات "الميموزا" تلجأ إلى وسيلة دفاعية مدهشة، فكلما تسلقت حشرة ساقها للوصول لأوراقها الرقيقة التي تعتبرها وجبة شهية لها، فبمجرد وصولها أولى الوريقات السفلية، تنتصب الساق فجأة وتلتف الأوراق حول نفسها، فتسقط الحشرة نتيجة هذه الحركات الدفاعية المباغتة من النبات.

hiragate.com

ويساعد التمويه في حماية بعض النباتات من أعدائها، فهناك أنواع من الصبّارات الصخرية الحية تُموه ألوانها وأشكالها، ليصعب تمييزها عن الصخور المحيطة بها. وبعض النباتات تستشعر أن النمل يسعى لامتصاص رحيق أزهارها، فتسرع بقفل بتلات الأزهار قبل وصول النمل إليها، ولا تتفتح إلا بعد تراكم قطرات الندى على سيقانها بشكل يعوق تسلق النمل. والمدهش أن علماء البيئة النباتية اكتشفوا أن الأشجار التي تتعرض لهجوم الحشرات، تتصدى لها بإطلاق إنذار صامت، فتنبعث منها روائح كيميائية لتنبيه الأشجار القريبة منها، وحثها على زيادة إفرازاتها الكيميائية الواقية المضادة للحشرات التي تنفرها. واكتشفوا أن بعض النباتات تفرز ثمانية أنواع من المواد السامة للحشرات، ولدى بعضها القدرة على تغيير تركيب هذه المواد من سنة لأخرى، على غرار تصنيع المضادات الحيوية، حتى لا تكتسب الآفات مناعة ضدها.

التكافل الاجتماعي عند النباتات

من أعجب الأشياء في مملكة النباتات، التعاون والتكافل بين النباتات مع بعضها ومع غيرها من الكائنات، تمامًا مثل مجتمع البشر. وتتنوع الخدمات التي تقدمها النباتات لبعضها البعض، حيث اتضح من أبحاث العلماء، وجود علاقات الحب بين بعض النباتات، حتى إن بعضها يزدهر إذا جاورت نباتات أخرى. فتبين -مثلاً- وجود علاقة حميمة بين فول الصويا والخروع، إذ تستطيع رائحة الخروع إبعاد الخنفساء التي تضر الفول. وعند زراعة الذرة الشامية والبازلاء بجوار بعضهما، فإنهما يعززان من نمو بعضهما. هذا واتضح وجود محبة ومُشاكَلة بين العنب وكلٍّ من الزيتون والقرع والنبق، وبين التفاح والكمثرى والنارنج، علاقة وصداقة، فيألف بعضها بعضًا وتزدهر بالتجاور. واستغل الباحثون الزراعيون هذه الألفة بين بعض النباتات في زيادة إنتاجية المحاصيل.

الإيثار عند النباتات

في عالم الزراعة يتم اللجوء أحيانًا إلى ما يعرف بـ"المصائد النباتية"، بغرض افتداء محصول رئيسي بنبات آخر تفضله الآفة -التي يمكنها التغذية على النباتين معًا- لكن النبات الآخر الذي يُقدَّم فداءً للمحصول الرئيسي

هو الغذاء المفضل لها فتتجه له الآفة، وبمجرد تجمّع الحشرات على صف "النباتات الحامية"، يتم اقتلاعها وإعدامها بما عليها من حشرات، فينجو بذلك المحصول الرئيسي. وذلك كما في زراعة حزام من أعواد الذرة وسط حقول القصب، لتفادي الإصابة بِثَاقابات الذرة، وزراعة صف من أشجار الخوخ حول بستان البرتقال الصيفي، لجذب ذبابة الفاكهة وحماية بستان البرتقال منها، وزراعة صف من النباتات القرعية بجوار زراعات الطماطم، لحماية الطماطم من الإصابة بالذبابة البيضاء. ويُعتبر دوَّار الشمس مصيدة نباتية مزدوجة الأسلحة، لأنه عند زراعته في مناطق زراعة المحصول الرئيسي، يجذب الحشرات الضارة، ويجذب أيضًا الأعداء الطبيعية المفترسة لها.

مشاعر النباتات

لقد أثبت العلم الحديث أن النبات يتأثر بسماع القرآن الكريم، ويهتز لسماع الموسيقى، ويزدهر نموه في البيوت المليئة بالحب.. وبالمقابل يذبل في البيوت المليئة بالجفاء والكراهية. والعارفون بأسرار زراعة النخيل، يعرفون حالات عاطفية بين النخيل ويفطنون لعلاجها؛ فهناك "النخلة العنيدة" التي ترفض الإثمار، وعلاجها الوحيد هو التخويف بالنار. وهناك "النخلة العاشقة" التي تميل بجذعها إلى نخلة تجاورها، والعجيب أن أطرافها يظهر عليها الذبول فيما عدا التي تواجه النخلة المحبوبة، وعلاج هذه الحالة هو ربطها بحبل غليظ مع النخلة المجاورة التي تميل إليها. ■

(*) كاتب وأديب مصري.

hiragate.com

نور سليمان أحمد*

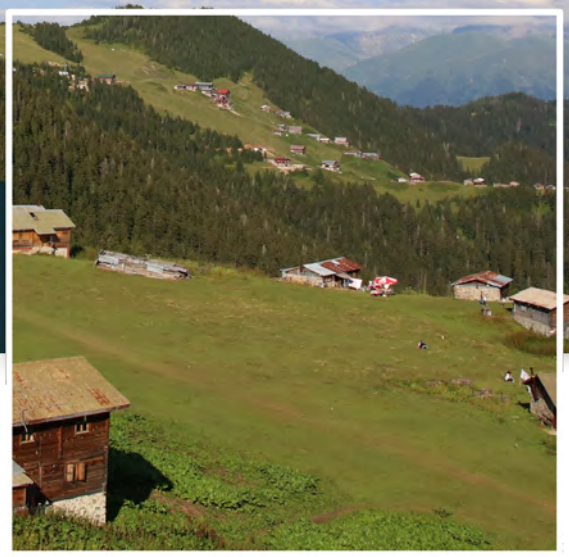

الريف
مصدر إلهام الشعراء

بين الشعراء والريف علاقة وثيقة، فالريف بالنسبة للشعراء هو العالم الرحب الذي يطلق المجال لأخيلتهم، ويرسم أمامهم عالمًا ساحرًا مليئًا بالألوان والصور الخلابة، التي يستوحون منها أجمل الأشعار. والريف مرتع خصب لذكريات الطفولة والشباب، ومنبع للحنين، ومتسعٌ لغسيل الأحزان وتناسي الأشجان.. وهو في بستان الشعر العربي، ومخيلة الشعراء العرب؛ عالم ينبض بالجمال والبكارة، والبساطة والوداعة والنقاء. لكنه أيضًا -كما صوَّره

بعض الشعراء- بيئة ترزح تحت نير الجهل والإهمال، والشقاء وشظف العيش. وقد تفنن الشعراء العرب في تصوير جمال الطبيعة الساحر، والنابض بالحياة والبراءة في الريف. وفي هذه الإطلالة نتفيأ بجمال الريف، ونرى كيف تناوله الشعراء في قصائدهم.

الريف حياة الطبيعة والحرية

نبدأ جولتنا في الريف مع الشاعر المهجري اللبناني "إيليا أبي ماضي"، الذي يعتبر الحياة في القرى هي الحياة الأجمل للشاعر الذي يريد إطلاق عنان أفكاره، والتحرر من كل قيوده وسط البراح الأخضر الجميل، وفي أحضان الطبيعة البكر، فالسماءُ العارية غطاؤه، وضياءُ الصباح دليله، حتى إذا حلَّ الظلام في المساء فإنه سيهتدي بضوء النجوم. فالحياة في الريف هي الحياة السعيدة التي يحلق فيها الإنسان بحرية كالطيور، ويمضي نهر الحياة به هادئًا هانئًا:

لله ما أشهى القرى وأحَبَّها
لِفتًى بَعيدِ مَطارِحِ الأفكارِ
إن شِئتَ تَعرى مِن قُيودِكَ كُلها
فَانظُر إلى صَدرِ السماءِ العاري
وَامشِ عَلى ضَوءِ الصَباحِ فَإن خَبَا
فَامشِ عَلى ضَوءِ الهِلالِ الساري
عِش في الخَلاءِ تَعِشْ خَلِيًّا هانِئًا
كَالطيرِ حُرًّا كَالغَديرِ الجاري

طبيعة الريف النابضة بالحياة

وننتقل إلى الشاعر المصري "فوزي العنتيل" الذي تنطبع بوجدانه وذاكرته صورة قريته ذات الطبيعة الفاتنة، والنابضة بالحياة والنشاط.. ففي قريته يحلو نسيم الربيع العليل، الذي يهبُّ عليها، فتتألق الحقول بالخضرة وأشجار النخيل الباسقة. وفي قريته حركة دائبة من النشاط والحيوية، يشترك فيها البشر والطيور التي تصحو مع نسمات الفجر، وتوقظ الديوكُ الناسَ بصياحها الجميل:

أنا لستُ أنسى قريتي وهَوَا الرَّبيعِ يزورُهَا
فتمُوجُ فيه حقولُها وَنَخيلُهَا وَطيورُهَا
وعلى صِياحِ دَجاجِها الوَثَّاب تصحو دُورُهَا
تَسْتَقْبلُ الْفَجْرَ الجميل وقَدْ أَطَلَّ يُنيرُهَا

الريف بالنسبة للشعراء هو العالم الرحب الذي يطلق المجال لأخيلتهم، ويرسم أمامهم عالمًا ساحرًا مليئًا بالألوان والصور الخلابة، التي يستوحون منها أجمل الأشعار. إنه مرتع خصب لذكريات الطفولة، ومنبع للحنين.

قرية لم تكتشفها القوافي

أما الشاعر السعودي "عبد الله أحمد الأسمري"، فيشكو لقريته "حوراء" بعد أن عاد إليها انقضاء عهد الصبا والبراءة، وراحة البال والمرح في أحضان قريته. فبعد رحيله عنها تبددت أحلامه، وشرّدته المدن، فجاء ينشد السكينة بين ربوع قريته التي لا تفرط في بكارتها وأصالتها، وتبقى مجالاً مفتوحًا للقصائد التي لم تكتب بعد، للتغنّي بسحرها الفاتن الغامض:

جئتُ حوراءَ كي أشكوَ ما بي
راح عهدُ الصِبا وعهدُ التصابي
جئتُ خلفي من السنينِ سرابٌ
ورحيلٌ مُطَعَّمٌ بالصعابِ
يا ابنة الريفِ موسمي ليسَ فيهِ
مِنْ وعودِ الحياةِ غيرَ السَرابِ
يا ديارًا لم تكتشِفْها القوافي
وعروسًا تختالُ خلفَ السَّحابِ

الحنين للقرية لترميم النفس

ويعبر الشاعر اليمني "جهاد العبّادي" عن شوقه لأيام البراءة في قريته الوادعة، حيث العيش على الفطرة، وحميمية المشاعر بين الأهل والجيران، وحكايا الجدّات الجميلة، ويشتاق لجمال الأشجار وسعف النخيل الذي يفتن الفؤاد، لكي يرمّم نفسَه التي مزقتها حياة المدينة بكل ضجيجها وصراعاتها وقسوتها:

رَمَّمْتُ نَفْسِي كي أُعِيدَ حَنِينَها
للأمْسِ للعَهْدِ القَديمِ الفَانِي
لطُفُولَتِي أشْتَاقُ، للأرضِ الَّتي
أهْدَيْتُها حُبِّي ونَبْعَ حَنَانِي

hiragate.com

للقَرْيَةِ السَمْرَاءِ، للكُرب الَّتي
فُتِنَ الفُؤَادُ بوَجْهها الفَتَّانِ
أشْتَاقُ للأشْجَارِ في وِدْيَانِها
أشْتَاقُ أرْضًا ضَمَّها شَرياَنِي
أشْتَاقُ لُغْزًا منْ حِكَايَةِ جَدتي
ورَغِيفَ خُبْزٍ منْ يَدِ الجِيرَانِ

خمول الريف وسباق المدينة

وننتقل إلى صورة أخرى من صور الريف في مخيلة الشعراء، وهي صورة إيقاع الحياة الرتيب في الريف، على عكس السباق المحموم وراء النجاح وكسب القوت في المدن. فالشاعر السوداني "محمد المكي إبراهيم" يقارن في إحدى قصائده بين حياة المدينة بوتيرتها السريعة والسباق المحموم فيها وراء الأحلام، وبين حياة القرويين التي استسلموا فيها للخمول والأفق المحدود فوقعوا فريسة للفقر والتخلف:

هذي عاصمة القُطرِ على ضفّاتِ النيلِ تقوم:
عرباتٌ، أضواءٌ، وعماراتْ
وحياةُ الناسِ سِباقٌ تحتَ السَوط
هذا يبدو كحياةِ الناسْ
خيرٌ من نومٍ في الأريافِ يحاكي الموتْ
ما أتعسَها هذي الأريافْ
ما أتعسَ رأسًا لا تعنيهِ تباريحُ الأقدامْ

انتظار الحصاد

أما الشاعر "محمود حسن إسماعيل"، فيرسم لوحة تفيض بملامح البؤس والشقاء للفلاح المصري في الماضي، حيث كان يعمل أجيرًا تحت لهيب الشمس في الحقول، ويُروي الأرض بعرقه ودموعه انتظارًا ليوم الحصاد، لينال لقيمات يسدُّ بها جوعه ويعوضه عن تعبه:

بايعتُ خطوًا شقَّ ليلَ قريتي
وفأسُها حيرانُ حولَ زهرتي
يسألها جوعانَ أين لقمتي
وكلُّ عطرٍ فيكِ كانَ دمعتي

نقاء القرية أساسُ السموّ

ويمدح الشاعر اللبناني "إبراهيم المنذر" حياة البساطة والنقاء في قريته، بين الحقل والكوخ، والناس الطيبين الذين ارتقوا أعلى مكانة بفضل سموّهم ونبلهم، ويدعو إلى نبذ العادات الدخيلة على المجتمع، التي أفسدت أصالته وأثارت الاشمئزاز في النفوس:

حبّذا غابتي وكوخي وحقلي
حبّذا قريتي ومَنْ سكنوها
كم تجلّى وقُدّسَ الطّهرُ فيها
وتسامى بفضلِهم أهلوها
فانبذوا كلّ عادةٍ تشمئزّ النفسُ
منها وفي الورى شهروها

حكايات القرية

أما الشاعر اليمني "زين العابدين الضبيبي"، فيرسم لوحة نابضة بالجمال والأصالة لقريته البسيطة الجميلة، ويسترجع ذكريات طفولته الثرية في أحضان القرية، حيث كان جدُّه هو الحكّاءُ الأول في القرية، الذي يلتفُّ حوله أهل القرية ليستمتعوا بحكاياته المثيرة للخيال. ومن هذا الجدِّ الحكيم تعلَّمَ هو وصبية القرية وشبابها حكمة السنين، وتسلحوا بالأمل والابتسامة في وجه الصعاب:

كان جدّي
نبيَّ الحكاياتِ في قريتي
كلما هيَّأَ الوقتُ متّكأً وجلستُ إليهِ:
يحدُّثني عن خبايا الزمانِ وأسرارِهِ، وملاحمَ أسفارِهِ
في دروبِ الحياةِ التي ناصَبَتْهُ الشقاءْ
كان جدي يُرَبّي غصونَ النقاءِ
ويزرعُ في وجهِ كلِّ الصغارِ ندى الضحكاتِ
ونخلَ الأمل..
كان يحكي
ويحتشدُ الناسُ من حولِهِ
والحصى والشجرْ..
يثمَلُونَ بسحرِ حكاياتِهِ
ويغيبونَ في دهشةِ الكلماتِ
ليتركَهُم بقلوبٍ معلقةٍ في سماءِ الخيال.

ويبقى الريف بالنسبة للشعراء، ملاذاً لنفوسهم الحيرى، ومنبعاً لرؤاهم المحلقة في دنيا البراءة والنقاء، والذكريات الجميلة، وعنواناً للنعيم والشقاء معاً. ■

(*) كاتب وأديب مصري.

hiragate.com

سريعة سليم حديد*

الذهب الأحمر: الزعفران

عندما نسمع بحقول الزعفران، يأخذنا الشوق لرؤيتها والسير بينها، لنستمتع بلون أزاهيرها البنفسجية الرقيقة ونستنشق عبيرها المميز، مما يجعلنا -ولو بجولة من الخيال- نكتسب طاقة إيجابية نبدد من خلالها ما علق بنا من سواد إثر ظروف عامة طالت الجميع.

لزهرة الزعفران رقة نادرة بلونها البنفسجي الأخاذ، وهي تتمايل بين وريقاتها الخضراء الطرية متفردة بجمالها، حيث تكون ضمن حقول منتظمة محافظة على قربها من التربة. وإذا أزهرت النبتة فلا ترى إلا شالاً بنفسجيًّا ملقىً على الأرض، مطرَّزًا بإبداع الخالق معطرًا بمسكه الفريد.

الزعفران ليس أزاهير للعرض، بل هو مادة جد نافعة، وقلّ نظيره لما يحمل من حساسية في كل مراحل الحصول عليه. فهو يعطي انسجامًا نفسيًّا ويمنع اعتلال المزاج والكآبة، ويبعد المرء عن الوساوس ويمنحه الراحة.

إطلالة عابرة

قامة نبتة زهرة الزعفران لا تعلو عن الأرض إلا ما يقارب عشرة أو خمسة عشرة سنتمترًا، وهذا ما يسهِّل عملية قطافها الممتعة. تشبه في تواضعها رسائل المحبين على الورق القديم المعطر، على قطع المناديل المطرزة بالأشكال المختلفة الألوان، تمنح الناظرين بهجة قلَّ نظيرها، فيحق أن يطلق عليها اسم زهرة "العبير".

لقد أطلقت إيران لقب "الذهب الأحمر" على تجارة الزعفران، لاعتباره من أغلى أنواع التوابل على الإطلاق. كذلك يُعرف الزعفران بأسماء شتى؛ منها الريهقان أو الرهقان وكروكو والزعفران السوسني.. حتى بعد أن تُقطف الزهرات تبقى محافظة على جمالها، وبعد التجفيف أيضًا، تكون على شكل أعواد حمراء ناعمة ذهبية نارية رائعة

الزعفران والتاريخ

هناك من يقول إن الزعفران كان حكرًا على الطبقة الحاكمة والأثرياء، كما استخدمه الأطباء قديمًا في علاج بعض الأمراض. وقد نسب إلى ملكة مصر "كليوبترا"، وكذلك ملوك مصر، حيث كانوا يستخدمون ماء الزعفران بمثابة المواد المطهرة للمعابد. كما كان الناس في "روما" ينثرون أزاهير الزعفران في الشوارع عند مرور الملك "نيرون".

تقول الأساطير إن "كروكوس" كان راعيًا شابًّا يتمتع بروح نبيلة، وقد وقع في حب حورية اسمها "سميكلاكس". تأثرت الآلهة بعمق حبه وهيامه، فحوّلته إلى زهرة أبدية لا تموت هي زهرة الزعفران، حيث تعلقت بها "سميكلاكس" حتى الموت.

أما الزعفران في الحلم، فثناء حسن ومال وذكر طيب، وهو كذلك إذا لم يمسَّ الجسد. ومن رأى أنه طحن الزعفران فإنه سيرى عملاً جيدًا جميلاً يدهش منه ويثير إعجاب الناس من حوله..

الزعفران من الناحية الطبية

الزعفران ليس أزاهير للعرض، بل هو مادة جد نافعة، وقلَّ نظيره لما يحمل من حساسية في كل مراحل الحصول عليه. فهو يعطي انسجامًا نفسيًّا ويمنع اعتلال المزاج والكآبة، ويبعد المرء عن الوساوس ويمنحه الراحة.

يقول ابن سينا في كتابه "القانون في الطب" عن الزعفران: "إن زهره يشبه زهرة الياسمين، منه أصفر ومنه ما يميل إلى البياض، جيده الطري الحسن اللون الزكي الرائحة". وقد أوصى به لتقوية الكبد والمعدة، وأكد على تناوله لرفع العطش.

يتحصل من زهرة الزعفران على صباغ أصفر زاهي اللون يضيف نكهة طيبة للطعام، يُنتَج عن طريق تجفيف المياسم وجزء من الأقلام في زهرة نبات زعفران الخريف البنفسجي، الذي يعرف علميًّا باسم الزعفران السوسني.

تعتبر أعضاء التلقيح، الجزء الفعال من النبات، والمقصود بها المياسم والأسدية، تنزع من الأزاهير المتفتحة. وهذه ميزة لا يوجد شبيه لها في قطاف محاصيل الأزهار الأخرى.. تجفف "الأسدية" في الظل بعد أن توضع على شبكة مناسبة.

يتمتع مركَّب "الكروسين" الذي تحتويه الزهرة، بإمكانيات علاجية عالية؛ فهو يحمي الخلايا العصبية من التلف، كما أنه مضاد للاكتئاب ولأكسدة الخلايا. يحتوي على بعض المسكنات، وله دور هام في تلوين الطعام، وهذا ما يدعو إلى القيام بحصاده يدويًّا وبشكل دقيق. كذلك يستوجب استخدام التكنولوجيا الحديثة لإنتاج تلك المادة، ويتم ذلك بالموجات فوق الصوتية، وهي طريقة فعالة لاستخراج المواد الموجودة داخل الخلايا، والمكونات الوظيفية النشطة بيولوجيًّا. يعمل الزعفران على معالجة الأرق وصعوبة النوم خلال الليل، كما يمنع تساقط الشعر ويُعزّز نموَّه بسرعة.

أما بالنسبة لفوائده للعين فهي كثيرة جدًّا؛ فهو

hiragate.com

يقوّي البصر ويزيل غشاوة العينين، ويحمي الشبكية من حساسية الضوء، وخاصة عند الأشخاص الذين يعانون من الضمور البقعي في العين، ويقلل من خطر الإجهاد التأكسدي للعين.

يتمتع بشكل خاص بمقاومة الأمراض الخبيثة، كما يحسن من عملية الهضم، وينظم ضغط الدم، ويخفف غثيان الصباح، وكذلك يحسن من ساعات النوم.

طرق استخدام الزعفران

يمكن أن يستخدم الزعفران مع الحليب أو الشاي أو الماء، وذلك بوضع بعض عيدانه الجافة في كوب ماء ساخن أو غيره، ثم يُشرب. يمكن استخدام العسل مع الزعفران بمزج ٢٠ غرام من الزعفران المسحوق، يضاف إليه ملعقة كبيرة من العسل، ويمكن تناول هذا المزيج يوميًّا لتقوية العين بشكل خاص.

الآثار الجانبية للزعفران

قد يسبب تناوله بعض الآثار الجانبية، نتيجة استخدامه لفترة طويلة أكثر من ستة أشهر؛ فقد يقلل من الشهية، ويسبب جفاف الفم.. وإذا أكثرتْ منه المرأة الحامل فربما يؤدي ذلك إلى الإجهاض. وقد يؤثر على قوة ضربات القلب، فلا ينصح به مرضى القلب. كذلك قد يسبب التعرق، والصداع والدوخة وسوء المزاج والنعاس. ما يدهش في الزعفران ليس شكله فحسب، بل كونه عشبة تشبه في مذاقها طعم العسل، ولكنها تحمل قليلاً من الطعم المر، وذات رائحة جميلة جدًّا.

أماكن زراعة الزعفران في العالم

يتم زراعته في الكثير من بلدان العالم، وتشتهر بذلك إيران، وإسبانيا، واليونان، والمغرب، والهند، وأفغانستان، والصين، وحاليًّا تقوم العديد من الدول بإنتاجه، منها سورية، ومصر.

تعتبر تجارة الزعفران من أهم الأنواع التجارية المربحة، فهو من أغلى أنواع التوابل وأكثرها قيمة في العالم، وخاصة استخدامه في صناعة الأدوية وغيرها.

تعتبر إيران البلد المصدر الأول للزعفران في العالم، ثم تليها إسبانيا وأفغانستان، وفي المرتبة الرابعة الهند تليها اليونان، وفي المرتبة السادسة إيطاليا، والمركز السابع تتصدره المغرب ثم الصين.

لكن للزعفران في "كشمير" حكاية أخرى، فهو من أجود وأنقى وأندر الزعفران في العالم، يتميز بأسديته الداكنة اللامعة، وله رائحة طيبة مميزة جدًّا ونكهة فريدة، وهو مرتبط بثقافة وتاريخ كشمير.

استخداماته المتنوعة

من ألوانه، البنفسجي، والأصفر المضيء الذي يميل إلى اللون البرتقالي. يستخدم لتلوين المأكولات، وأغلب استخداماته في المخبوزات، والجبنة، وصنع الأدوية العشبية المصنعة عن طريق اليد.

أما المغاربة فيستخدمونه في أطباقهم الكثيرة والمشهورة، التي تندرج تحت اسم "الطاجين". وفي المطبخ الهندي يستخدم الزعفران في أطباق الحلويات التي تعتمد على الحليب، كما يستخدم الزعفران أيضًا في صناعة المشروبات الكحولية. وأجمل استخداماته، في كتابة الآيات القرآنية بمداد من الزعفران وماء الورد.

على الرغم من تكلفته العالية، يستخدم الزعفران في صبغ النسيج، ولا سيما في الصين والهند، ولكنه ذو لون غير مستقر وحيوية البرتقالي والأصفر تتلاشى بسرعة إلى اللون الأصفر الشاحب.

منذ القدم كانت الملابس من أردية وعباءات المصبوغة بالزعفران حكرًا على الطبقات النبيلة فقط، وقد كان يرتديها الرهبان الهندوس والبوذيون في القرون الوسطى في كل من إيرلندا وإسكلندا. وهناك محاولات عديدة لاستبدال الزعفران المكلف والغالي، مع أرخص مادة معتادة ومعروفة في الغذاء، ألا وهي الكركم.

وقد نظم أول مهرجان لموسم الزعفران الحر في مدينة "تاليوين" في المغرب في نوفبر ٢٠٠٧م، هذا مما يدل على الانتباه إلى أهمية هذه النبتة الفريدة من نوعها.

والجميل أن لون الزعفران قد دخل في استخدام اللوحات الفنية التشكيلية ممتزجًا مع لون القهوة، مما يضفي على اللوحات جمالاً مميَّزًا. ■

(*) كاتبة وصحفية سورية.

hiragate.com

أ.د. عبد العظيم أحمد عبد العظيم*

حنين البقاع

١

اشتهر بين المحبين، محبة العاشق للمعشوق في الهوى، لا ينفك عنه وإن أرداه إلى الجوى. وربما زاد هيام بعض العاشقين فأحب كل ربع سار عليه المعشوق. بل إن فسيفساء مكان لقاء المتحابين يحب بعضها بعضًا، طربًا وشوقًا لتكرار اللقاء كما قال المُنَخَّل بن عامر اليَشكُري: وأُحبُّهَا وتُحبُّنِي ويُحبُّ ناقَتَها بَعِيرِي

أو كما قال مجنون ليلى:

أمـرّ على الديـار ديـار ليلى أُقَبِّلُ ذا الجدار وذا الجـدارا

وما حب الديار شَغفْن قلبي ولكن حب مَن سكن الديارا

وهـذا النـوع مـن المحبة مطـروق مجرب، قد سـطر فيه المتحابـون الدواوين، وأنشـدوا فيـه القصائد، ودندنت به القيان.. أما عكس ذلك وهو "محبة المكان للمكين"، فلم يلتفت إليه الأدباء بالإفراد والتأليف، ومن ثم سميناه "حنين البقاع"، فالمجنون أحب ليلى والجدار، ولكن لم نسمـع عن محبة الجدار له.

وحنيـن البقـاع يثمـر فـي مواطـن الإيمان، إذ يستشـعره العارفون بالفراسـة الإيمانيـة، فيتدرجون من وهـم محبـة المـكان لهـم إلى يقين بوح المكان بمحبتـه لهم. فهذه المحبة دليل علـى كمال المحبوب، فكمـا أن الكـون يسـبح دون أن نفقـه تسـبيحه ﴿وَإِنْ مِـنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِـنْ لَا تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤)؛ فإن في الملكوت من يحب أهل الكمال دون أن نستشعر محبته.

ومن رواية أنس بن مالك ﷺ قوله ﷺ في أُحُد: "جبلٌ يحبنا ونحبه" (رواه البخاري). فجدار سـلمى لم يبادل "المجنون" قبلة بقبلة، أما جبل أُحُد فقد شـرع في الحنين والطرب دونما طلب، فكان رد التحية بمثلهـا "جبـل يحبنـا ونحبـه"، بـل كان الـرد بأحسـن منها؛ إذ شـرع المحبوب -وهو رسـول الله ﷺ- في ضرب المثل بهذا المحب، بل بلـغ من التلطف والدلال استخدام التصغير لتقريب المنزلة ورفعها؛ ففي صحيح البخاري "هذا جُبَيْلٌ يحِبنا ونحبه".

ثـم صـار أُحُـد مـثلاً لبقاع عاشـقة أخرى؛ إذ سـرى طيف المحبة من جبل أُحُـد إلى جبل حراء؛ عن سـعيد بن زيد: أن النبي ﷺ قال: "اسْـكُنْ حِراءُ، فليس عليك إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شـهيدٌ"، قال: وعليه النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد ﷺ. وعن أنس بن مالك، أن رسـول الله ﷺ خَطب إلى لِزْق جِذْعٍ، واتخذوا له منبرًا، فخطب عليه فحنَّ الجِذْعُ حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ فمسَّه فسكت.

فكما طرب أُحُد بملامسـة الأقدام الشـريفة، جزع الجذع للحرمان من تلك الملامسـة. ففي مصنف ابن أبي شـيبة عن أبي سـعيد قال: كان رسـول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فأتاه رجل رومي فقال: أصنـع لـك منبـرًا تخطـب عليـه؟ فصنـع له منبره هذا الذي ترون، فلما قام عليه يخطب حنّ الجذع حنين الناقة على ولدها، فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسكت، فأمر به أن يحفر له ويدفن.

وفي رواية أنس بن مالك قال: فلما قام على المنبر ليخطب حنَّت الخشـبة إلى رسـول الله ﷺ، قال أنـس: فسـمعتُ الخشـبة حنَّـت حنيـن الولـد، فمـا زالت تحنُّ حتـى نزل إليهـا رسـول الله ﷺ فاحتضنها فسكنت، قال: وكان الحسن إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه من الله، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه. بل تتسـع محبة البقاع للعارفين لتشمل كل موضـع سجد فيه العارفون، قال ابن عباس: تبكي على الرجل البقاعُ التي كان يصلي فيها، ويصعد عمله منها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾(الدخان:٢٩).

وإذا كانت تلك المشـاعر لثلاثة مواضـع في بقاع الأرض، فكذلك البقاع في السـماء، قال رسـول الله ﷺ: "اهْتَزَّ عرشُ الرحمن لِمَوتِ سعد بن معاذ" (رواه مسلم)؛ أي شوقًا وطربًا للقاء روح "سعد"، التي صعدت لبارئها في ذي القعدة في العام الخامس للهجرة، بعد أن حكم في بني قريظة بحكم الله من فوق سبع سماوات. ■

(*) أستاذ جغرافيا الأديان، وكيل كلية الآداب، جامعة دمنهور / مصر.

تحليل كتاب

د. خالد فهمي*

تحصيل الرَّوْح والريحان

قراءة في "معراج الرُّوح: الصلاة"

يحكي لنا الذكر الحكيم أن منتهى آمال العبد بعد رحلة التعب والنصب في الحياة الدنيا المرهقة، هي أن يحصل على الراحة الكريمة وأن يحيا الحياة الكريمة، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾(الواقعة:٨٨-٨٩). والروح في المعجمية القرآنية هي الرحمة، وهي الراحة، وهي الحسنى والنظر إلى وجه الله تعالى، وإذا كان فلا عذاب.. والريحان في المعجمية القرآنية: الرزق المستطاب، والكرامة، والتحية والحبور.

وتأمُّل ركن الصلاة يكشف عن أنه الركن المحقق لأعلى تجليات القرب من الله تعالى، إن في فحص تاريخ فرضها، وملابسات ذلك الفرض، وإن في ناتج القيام بها؛ ولذلك فإن تحليل العتبة النصية المركزية لكتاب المفكر الفذ "فتح الله كولن (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) وهي عنوانه "معراج الروح: الصلاة"، يكشف عن عبقرية في اقتناص حقيقة هذا الركن المهيب في لحظة الأمر به أولاً، ويكشف عن حقيقة نتائجه عند كل نهوض به في الزمان، إذ إن الصلاة تحليق نحو العلا هناك حيث سدرة المنتهى.

كتاب "معراج الروح: الصلاة" في طبعته العربية، صدر عن دار الانبعاث، القاهرة سنة ١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م، للأستاذ "فتح الله كولن". والكتاب يتضمن مقدمة للدار التي نشرت الكتاب وتتضمن تعريفًا موجزًا به، وتمهيدًا يشير إلى أفعال الصلاة وأنها سبيل للاقتراب من "حظيرة القدس"، ثم المدخل ويكشف عن أن الصلاة ركن وعماد الدين وسبيل العبد للقرب من الله، ومن ثم فهي "وسيلة إلى المعراج" أو هي "معراج الروح".

ثم يأتي الكتاب بعد هذه العتبات، في تسعة فصول، هي حقيقة الإسلام، والصلاة في الإسلام، والتهيُّؤ للصلاة، وشروط الصلاة وأركانها، ومواقيت الصلاة، وثمرات الصلاة، وصلاة الجمعة، وصلاة النوافل، والأدعية التي تُذكر في ثنايا الصلاة.

الانتماءات المعرفية للكتاب

إن تحليل هذا الكتاب لأجل تشغيله الحضاري في واقع الناس والأمة، يكشف عن جملة من الانتماءات المعرفية التي تحيط به، وهي ضرورية لاستثماره في حياة المسلم المعاصر. وهذه الانتماءات هي:

١- علم الفقه الجمالي أو علم الفقه العالي: الفقه الذي هو علم متعارف عليه طموحه الإعانة على القيام بالتكاليف أو الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية، وهذا هو المستوى الأول الأدنى، لكن طموح هذا الكتاب (معراج الروح) يتجاوز هذا المستوى إلى فقه عال أو فقه جمالي، يقول الأستاذ فتح الله كولن (ص٣٧):

"وليس المقصود بأداء الصلاة على الوجه الأكمل، أن نؤديها وفقًا لتفسير كتب الفقه لمعنى الكمال والنقصان، بل ينبغي التفكير في الأمر بشكل أكثر شمولية؛ حتى يستوعب كل نواحي الصلاة المادية والمعنوية.. الخلاصة هي أن الصلاة "لب العبادات".

ومفهوم الفقه الجمالي أو الفقه العالي، هو الانطلاق من الشروط والأركان المؤسسة على الحرص البالغ على تحصيل الغايات المنشودة من ورائها، الفقه الجمالي قيام بالشروط مشفوعة بالمروءة والمحبة والإقبال من القائم المصلي.

٢- علم التزكية: التزكية أو الوصول إلى التأنس، واغتيال كل ملامح التوحش في نفس المؤمن، أحد أعلى مقاصد هذا الدين العظيم، وهو مطلوب محوري ألح عليه الكتاب العزيز بطرق وأساليب متنوعة، آمرًا وممتدحًا ومخبرًا عن جلالها قول رسول الله ﷺ فيما يرويه زيد بن أرقم: "وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها" (رواه مسلم)، ويقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(الشمس:٩).

وهذا الكتاب (معراج الروح: الصلاة) طموحه الحقيقي هو الإعانة على الوصول بالمسلم إلى مقامات التزكية والتأنس، والارتقاء إلى "كل الأدب الذي يقتضيه وجوده في الحضرة الإلهية" (ص٣٣).

٣- علم السيرة النبوية: إن الكتاب فيما يورده من المواقف العملية النبوية نص في سيرة النبي ﷺ في الصلاة.

٤- علم العمران: علم العمران هدفه إعمار الوجود، واستثمار تسخير الله تعالى لما في الوجود، لتمكين الإنسان من القيام بواجب الإعمار، يقول تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)، أي طلب منكم إعمارها وعمرانها.

والسعي في الوجود لتحقيق هذه الغاية النبيلة يلزمه سياق معرفي أخلاقي، وكتاب "معراج الروح: الصلاة" يسعى إلى خدمة هذا السياق الموجه للعمران في النسق الإسلامي؛ ذلك أن "الصلاة أساس مهم من أسس العبادة" (ص٣٨) والعمران عبادة. والصلاة هي "الرباط الذي يعني استغراقًا في فكر العبودية لله طول العمر" (ص٢٣).

ومن اليسير جدًّا، تأمل انعكاس استصحاب الصلاة وروحها وسرها في التصميمات والتشييدات المعمارية في حضارة المسلمين في البناء والعمارة، وهو ما نلمحه في التجلي المعماري المتمثل في "الصحن المفتوح على السماء لتحقيق الاتصال بين الأرض والسماء، سواء في عمارة المساجد أو عمارة البيوت، لقد كانت

إن كتاب معراج الروح: الصلاة، مليء ومكتنز بكثير من العبارات الجمالية التي تمنح القارئ شعورًا بالارتياح والبهجة، لأنها صادرة عن شعور متوهج يتحرك بنوع من الطراءة أو الطزاجة.

hiragate.com

العمارة بتأثير معراج الروح "حوارًا مع الله"، مثلما أن سر الصلاة هي القرب من الله".

٥- علم التفسير: إن هذا الكتاب نص في تفسير آيات الصلاة الواردة في الذكر الحكيم.

القيمة الحضارية لكتاب معراج الروح

الحقيقة أن هذا الكتاب يحوز عددًا من العلامات التي ترقى بقيمته الحضارية التي تعلن وتقرر إمكان أن ينهض فيجبر مناطق كثيرة ضعيفة، ويعالج مناطق كثيرة مريضة. وهذه العلامات المعلنة عن قيمته الحضارية هي:

أ- منزلة المؤلف الأستاذ فتح الله كولن بأفقه الرحب الإنساني الذي يحكم فكره وحركته في الحياة المعاصرة، وهو الأفق الإنساني الرحب المنبثق من النسق القرآني الإسلامي الإيماني المعبر عن الروح العصرية، ذلك أنه "اجتهد في تحصيل العلوم الشرعية والعصرية" (ص٥).

بـ- موضوع الكتاب بوصفه نصًّا بديعًا في الفقه الجمالي أو الفقه العالي، لأعظم أركان الدين الذي هو الصلاة، بوصفها عماد الدين وبوصفها مخزنًا جامعًا، أو خزينة جامعة لكل أسرار هذا الدين العظيم.

جـ- المعالجة الدقيقة المستوعبة، والجمالية والشفافة في الكتاب، حيث إن قراءة الكتاب يكشف عن عبقرية في التنظيم ينطلق من العموم الماثل في فحص حقيقة الإسلام، ثم يتجه إلى التفصيلات والخصوص على ما يظهر من التوجه نحو فحص منزلة الصلاة في الإسلام، ثم التهيؤ، وفحص شروطها، ومواقيتها ومعايير قبولها من تأمل ثمراتها، ثم فحص صلاة الجمعة ومنزلتها وأثرها، إلى فحص الدعاء وفضله وأثره في الحياة الإسلامية.

وفي كل هذا يصحبك لغة شفافة محلقة، شفافة دلاليًا، وواضحة معجميًا ونحويًا، وشفافة مجازيًا بلغة تهدف إلى التأثير في النفس المسلمة؛ طلبًا لترقيها الأخلاقي والروحي، وطلبًا لتحصيل السعادة والبهجة الآمنة والفرح الساكن. وهذا الطموح ظاهر في كل ثنايا الكتاب، يقول الأستاذ فتح الله كولن:

"نحن نتلقى الأذان وكأننا نغتسل في جدول موسيقى نجد فيه سحرًا آخر وطعمًا آخر ولطافة وسعادة أخرى" (ص١٢٦).

معراج الروح.. خطاب الاستثمار

الحقيقة أن هذا الكتاب مليء ومكتنز بكثير من العبارات الجمالية التي تمنح القارئ شعورًا بالارتياح والبهجة، لأنها صادرة عن شعور متوهج يتحرك بنوع من الطراءة أو "الطزاجة"، ومن هذه العبارات:

"السجدة هي أرضية الشكر على الواردات والفيوضات الموجودة في الصلاة، وهي بوتقة المهابة التي تسكب القلوب المنصهرة فيها في قالب العبودية.. وهي ساحة لقاء ومرفأ اجتماع المشاعر والأفكار المتجهة إلى الذات الجليلة، التي من وجدها عرفها ومن عرفها عشقها" (ص٣٢).

"أجل، بالعبادات تنكشف علاقة الروح والقلب بالعالم اللدني" (ص٦٧).

"إن الأرواح تسمو بالعبودية لله، وتظفر بقوتها الحقيقية؛ لأن العلاقة بالله سمة خاصة بالإنسانية" (ص٧٠).

"إن الصلاة تكسب العبد اطمئنانًا.. بما تحمله من فيوضات لدنية تتنزل عليه" (ص٨٧).

"الصلاة أثمن الأشياء" (ص٩٥).

"الصلاة بحر وشلال عظيم يطهر المسلم من أرجاسه المادية والمعنوية" (ص٩٨).

"إن المؤمن يتسم بنشاط وحيوية في الصلاة، ويشعر بطمأنينة بالغة عند توجهه إلى ربه بكل كيانه" (ص١٣٦).

"الصلاة معراج المؤمن، وسفينة الدين، تسير بها الأعضاء" (ص١٢٦).

"إن الكلمات المقدسة التي يكثر ذكرها في الصلاة؛ مثل سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، هي صوت العبودية ونفسها" (ص١٥٢).

"مراعاة الصلاة تمنحنا العشق والشوق والقوة، من أجل أن نؤدي وظيفة العبودية في هذه الدنيا، وهي الصديق الصدوق والشفيع لنا في طريقنا المحفوف بالمخاطر.. وهي الوسيلة التي تقربنا من الله ﷻ" (ص١٦٣). ■

(*) أستاذ العلوم واللغة بكلية الآداب، جامعة المنوفية / مصر.

hiragate.com

العربي السيد عمران*

لو رُفِع الحجاب

الجسمُ أَعْيَتْ بَأْسَهُ الأوْزَارُ ... والرُّوحُ أَلْهَتْ خَوْفَها الأعْذَارُ

تاهَتْ خُطانا في الطَّريقِ ولَمْ نَزَلْ ... نسْعَى، وتَنْأَى عَنْ خُطانا الدَّارُ

ولكُلِّ نبْضٍ في الدُّروبِ حِكايةٌ ... ولكلِّ نَجْمٍ في السّماءِ مَدارُ

اللهُ يقْضِي ما يشَاءُ لحكْمةٍ ... ولَكَمْ عَلَتْ في فَهْمِها الأفْكَارُ

* * *

رُبَمَا ظَنَنتَ الخيْرَ في أمرٍ، ولمْ ... يكُ فيهِ إلا سَوءةٌ وخسَارُ

وعَسَى مُنِعْتَ، وكانَ حُزْنُكَ طاغيًا ... والمنْعُ مِنْ بَعْضِ البَلاءِ سِتَارُ

ولعَلَّ أَمْرًا قدْ بَدَا لَكَ مُظْلِمًا ... وغشَاكَ هَمٌّ قاتلٌ ومَرارُ

حِينَ اسْتَفَقْتَ وَجَدْتَ فيهِ مَنَارةً ... وَتَرَنَّمَتْ في لَيْلِكَ الأقْمَارُ

* * *

فانْفُضْ فؤَادَكَ وهْمَهُ، أوْ هَمَّهُ ... قُمْ حَيْثُ قَامَ المحسنونَ وسَارُوا

ثِقْ لا تَغِبْ عَنْ حُسْنِ ظَنِّكَ لَحْظَةً ... إنَّ الحَبيبَ على الحَبيبِ يَغارُ

وانْظُرْ لإبراهيمَ خَلَّى زَوْجَهُ ... في غَيْرِ ذِي زرْعٍ، فكَانَ عَمَارُ

والعَبْدُ معْ مُوسى شِعَارٌ للْقَضَا ... وبكُلِّ حادِثةٍ جَرَتْ أسْرارُ

أقْدارُ ربِّي كُلُّها نفْعٌ لَنَا ... حَاشَا لمِثْلكَ يا رَضِيُّ يُضَارُ

واللهُ يَبْغِيكَ السّعادَةَ لا الضَّنَى ... فَلْتَرْضَ؛ إنَّ رِضَاءَكَ اسْتِبْشَارُ

* * *

بِرِضَاكَ تَحْدُوكَ السَّكينةُ والهُدَى ... والنَّفسُ تُظْهِرُ بأْسَهَا الأَخْطَارُ

بِرِضَاكَ تنْتَعِشُ الْحَيَاةُ كريمةً ... والسُّحْبُ تُعْلِنُ خيْرَها الأَمْطَارُ

بِرِضَاكَ لن تَأْسى على دُنْيا الوَرَى ... وتَحُولُ ماءً في الصُّدُورِ النَّارُ

بِرِضَاكَ تُصْبِحُ في الْمَعَالِي قُدْوَةً ... وَإِلَيْكَ بالْفَضْلِ الْعَظِيمِ يُشَارُ

واللهِ لو رُفِعَ الحِجَابُ أمامَنَا ... وَبَدَتْ حِيَالَ عُيونِنَا الأَقْدَارُ

ما غيْرَ ما كَتَبَ الإلَهُ سَنَرْتَجِي ... كَلَّا، ولا غَيْرَ القَضَا نخْتَارُ

(*) شاعر وأديب مصري.

أ.د. شريف علي تاكالان*

السعادة والسلام الداخلي

السعادة هي شعور بالرضا، وطمأنينة النفس، والبهجة، والسرور، أي هي حالة يصل إليها الإنسان من السلامة والراحة الجسدية والروحية. ويوصف الإنسان الذي يعيش سلامًا داخليًا، ويحافظ على الهدوء مهما كانت الظروف، ولا يعبأ بسفاسف الأمور، ويفكر دائمًا بطريقة إيجابية، وبالتالي يعرف كيف يتعامل

مع الآخرين؛ بالسعيد، المطمئن، الراضي أو المسرور. نعم، إن السعادة هي امتلاء القلب بالطمأنينة والسكينة. إنها حالة روحية تتمثل في ثقة الإنسان بذاته، وتماسكه -وهو في كامل إرادته ووعيه- أمام النوازل والخطوب، حيث ينظر إلى الحوادث نظرة شمولية، مدركًا أن الماضي والحاضر والمستقبل ما هي إلا محطات عابرة، وأن هناك حياة أبدية تنتظره.

ليس المطلوب أن يكون كل الأصحاء سعداء، أو

أثبتت الدراسات العلمية أن الذين تمكّنوا من إقامة علاقات قوية مع أزواجهم وعائلاتهم وأصدقائهم، ومجتمعهم الذي يعيشون فيه، كانوا أكثر سعادة، ويعيشون لفترة أطول.

أن يكون كل السعداء أصحاء؛ فالسعادة لا تقتصر على الإمكانات المادية أو الأوضاع الاجتماعية فحسب، فلربما تجد الفقير البسيط سعيدًا أيضًا.

إن مصدر السعادة مرهون بأن يكون الإنسان إنسانًا حقًّا. وإن الإنسان الحقيقي، هو الذي يتعامل مع الناس بعدل، وعطف، ورحمة، وإيثار، ويساعدهم ماديًّا ومعنويًّا، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويتقبل الجميع بغض النظر عن دينه أو ثقافته أو مشربه أو وطنه.. فهو إنسان ناضج متسامح متواضع متعاون رحيم، ليس في قلبه مكان للحقد والكراهية أبدًا.

أطول دراسة في العالم

"لقد قامت جامعة "هارفارد" بأطول وأشمل بحث في العالم حول نمو البالغين، حيث بدأ البحث عام ١٩٣٨م واستمر ٧٥ عامًا. استهدفت الدراسة مجموعتين، ضمت المجموعة الأولى ٢٦٨ طالبًا في الصف الثاني في جامعة "هارفارد"، بينما ضمت المجموعة الثانية ٤٥٦ طالبًا تتراوح أعمارهم بين ١٢-١٦ يعيشون في حي فقير في "بوسطن". أجرى الباحثون استطلاعًا للمشاركين حول حياتهم مرة كل عامين، وطرحوا أسئلة حول رضاهم الوظيفي، والزواج، وحياتهم الاجتماعية. كما أخضعوهم لفحوصات طبية، مثل اختبارات الدم، والأشعة السينية، وتحليل البول مرة كل خمس سنوات. وكانت النتيجة، أن العلاقات الجيدة هي العامل المحدد لحياة صحية وسعيدة. وصرح رئيس فريق البحث الطبيب النفسي "روبرت والدينجر" (Robert Waldinger) بعد ٧٥ عامًا من التجربة -في نوفمبر ٢٠١٥م- عن ثلاثة أمور رئيسية للحصول على حياة سعيدة، هي:

١- إقامة روابط قوية مع من حولك: وُجد في المجموعتين، أن الذين تمكّنوا من إقامة علاقات قوية مع

hiragate.com

أزواجهم وعائلاتهم وأصدقائهم، ومجتمعهم الذي يعيشون فيه، كانوا أكثر سعادة، ويعيشون لفترة أطول.

٢- مدى الرضا الذي تشعر به في علاقاتك: لوحظ أن الأشخاص المشاركين في الدراسة، والذين كانوا أكثر رضًا عن علاقاتهم في سنِّ الخمسين، كانوا الأكثر صحة عند سنِّهم الثمانين.

٣- علاقة صحية مع شريك داعم: وُجد أن الذين يتمتعون بزيجة قوية أو علاقات طويلة الأمد حتى سن الخمسين، يمتلكون ذكريات أفضل من الذين لم يحظوا بذلك.

يحدث أحيانًا أننا نهمل المحيطين بنا، ونكسر خاطرهم، ولا نهتم بعلاقاتنا نتيجة الأزمات المادية، أو طموحنا في النجاح.. لكن هذه الدراسة أظهرت أيضًا، أنه عند النظر إلى ما تركناه خلفنا في الحياة لمعرفة ما إذا كنا قد قضينا حياة سعيدة أم شقية، نجد العلاقات القائمة على الحب المتبادل تتصدر كل شيء.

دراسة أخرى أجريت في جامعة "هارفارد" أيضًا على خمسة آلاف شاب تتراوح أعمارهم بين ٨-١٤ عامًا، أثبتت أن من يؤدي شعائر دينه بانتظام في هذا العمر، يكون بعيدًا عن الاكتئاب والعادات السيئة في العشرينات من عمره. كما أثبتت الدراسة أن الإنجازات المتمركزة حول الذات تمنح الناس سعادة مؤقتة، بينما مساعدة الآخرين ومعاونتهم، وأداء العبادات بانتظام، تبعث في الإنسان سعادة دائمة وطويلة الأمد. كما ظهر أن الأشخاص الذين يساعدون المحتاجين دون مقابل، أكثر سعادة من الذين لا يقومون بذلك.

هناك هرمونات مثل الإندورفين، والسيروتونين، والدوبامين، والأوكسايتوسين وغيرها، تفرز في الدماغ وتعمل كناقل عصبي بين خلايا المخ. فإن زيادة هذه الهرمونات وعملها بشكل جيد، يبعث على الشعور براحة أكبر، ويُبعد الاكتئاب، ويدفع إلى الحيوية والطاقة الإيجابية والسعادة الغامرة. وإن زيادة هذه الهرمونات، مرهون بكثرة العلاقات الطيبة، وتناول الأطعمة الصحية المتنوعة، وممارسة الرياضة باستمرار.

إن مستوى هرمون الإندورفين -كما ذكرنا آنفًا- يرتفع في دماغ الأشخاص الذين يقومون بمساعدة الآخرين دون انتظار أيِّ مقابل؛ إذ يمنح هذا الهرمون الإنسان إحساسًا بالراحة والطمأنينة، ويدفعه إلى الشعور بالعافية والسكينة.. فتلك هي صورة السعادة والسرور.

إن الصفات الإنسانية من مشاركة الآخرين أفراحهم وأحزانهم، وتذليل الصعاب لهم، وفتح طرق السعادة أمامهم، يؤدي في نهاية المطاف إلى سعادة الإنسان، ومن ثم ولوجه في عالم رحب يزخر بالراحة والطمأنينة.

وبالتالي، إذا تحرَّكنا وفقًا لهذه المبادئ، فسنفوز بأمرين، الأول أن نكون سعداء في هذا العالم الشاسع، والثاني أن تتاح لنا الفرصة للتأمل في الوصول إلى الراحة والجمال في الدار الآخرة.

كل ما يحدث هو المقدَّر لنا، ومن شروط الإيمان، الرضا بهذا القدر.. يجب أن نقف أمام المصائب والبلايا بعقل وبصيرة وصبر.. وعلينا أن نتحلى بالعزم والحزم، من أجل التغلب على الصعاب والعراقيل، لأن ذلك من ضرورة إنسانيتنا.

إذن، إن التعاسة والكآبة، ناتجة عن ارتكاب السلوكيات غير الإنسانية من القسوة والصلابة، والابتعاد عن كل عمل إنساني ذكرناه.. وإننا إن لم نؤمن بالقدر حق الإيمان، وإن لم نر الحِكم الكامنة وراء ما يحلُّ بنا من بلاء ومصائب، فلن نجد الراحة ولن نحظى بالسعادة ما حيينا. ■

(*) كاتب وأكاديمي / الولايات المتحدة الأمريكية. الترجمة عن التركية: خالد جمال عبد الناصر زغلول.

نور الدين صواش*

الدلافين
مصدر إبداع وابتكار

تحفل المحيطات بحياة مدهشة تثير إعجابنا، وتتصدر بين هذه المخلوقات البحرية الدلافين بذكائها الفائق وقدراتها الاستثنائية. وقد اشتهرت الدلافين بودِّيَّتها تجاه البشر، إذ يصفها علماء البحار بأنها أفضل صديق بحري للإنسان. ومع دور هذه المخلوقات الساحرة في توازن البيئة البحرية فقد ألهمت البشر أيضًا بابتكارات في مجالات عدة، حيث استفاد العلماء من دراسة هياكلها وسلوكياتها الفريدة لتطوير تقنيات حديثة في مجالات متنوعة مثل تكنولوجيا السونار، وتصميمات السفن، والغواصات، والطائرات، وتقنيات الاستشعار.. وفي هذه الرحلة سنستكشف معًا عالم الدلافين وتأثيرها العميق على حياتنا وتقنياتنا الحديثة.

التنفس الذكي وتصميم السفن

تملأ الدلافين ما يقارب ٩٠٪ من رئتيها بالهواء في كل مرة تتنفس فيها. بخلاف البشر والثدييات البرية الأخرى، التنفس عند الدلافين ليس عملية تلقائية ولا إرادية؛ بل هو فعل إرادي، فكما يمكننا نحن البشر اتخاذ قرار المشي أو السير، تمتلك الدلافين القدرة على اتخاذ قرار التنفس في الوقت الذي ترغب فيه، وهذا الإجراء الاحترازي يمنع الدلافين من الغرق والموت أثناء النوم في الماء.

وفي أثناء النوم، يستخدم الدلفين نصفي مخه بالتناوب بفارق زمني يقارب خمس عشرة دقيقة، فبينما ينام نصفه الأيمن، يرتفع النصف الأيسر إلى السطح للتحكم في عملية التنفس، والعكس صحيح.

وتتمتع الدلافين بتصميم فريد يسهل حركتها في الماء، يتمثل في النتوء الذي يشبه المنقار في فمها، فبفضل هذا التركيب، يمكن للدلفين اختراق الماء بشكل أكثر فعالية، كما يمكنه السباحة بسرعة أكبر مع استهلاك طاقة أقل. وقد استُلهِم تصميم أنوف السفن الحديثة من هذا النتوء، مما يزيد من سرعتها ويمكنها من شق البحار والمحيطات بسهولة أكبر.

في السفن الكبيرة المعاصرة، يُستخدم تصميم يشبه أنف الدلافين بدلاً من الأقواس التقليدية الشبيهة بحرف (V)، يساعد هذا التصميم في تحسين اختراق مقدمة السفينة للمياه، مما يزيد من سرعتها ويقلل من استهلاك الوقود بنسبة تصل إلى ٢٥٪.

نظام فريد يحمي من انخفاض الضغط

لا يوجد كائن بحري يتفوق على الدلافين وحوت العنبر في الغوص إلى أعماق البحار، حيث يعود الرقم القياسي بهذا الشأن إلى حوت العنبر الذي يغوص إلى عمق ٣ آلاف متر بنَفَس واحد فقط؛ ذلك أن الخالق العظيم منح الدلافين والحيتان جسمًا يمكّنها -بفضل ذيلها وزعانفها- من الغوص إلى أعماق البحار والمحيطات، ثم الطفو على سطح الماء من حين لآخر، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الإنسان اخترع زعانف السباحة استلهامًا من هذه الحيوانات البحرية.

ميزة عجيبة أخرى وضعها الخالق في رئتي الدلفين هي أن هذا الكائن الرشيق عندما يغوص في الأعماق، يزداد وزن الماء عليه ويتكاثف الضغط، ولموازنة هذا الضغط، يزيد الدلفين تدريجيًّا من ضغط الهواء داخل رئتَيه، ليصل هذا الضغط الهوائي تدريجيًّا إلى مستوى عالٍ جدًّا، وهنا يكمن العجب العجاب، إذ لو أن رئة الإنسان تعرضت لهذا المستوى من الضغط لتمزقت وتحطمت مباشرة، لكنَّ شيئًا من هذا لا يحصل مع الدلفين أبدًا. نعم، لقد جُهّز جسم الدلفين بآلية خاصة تحميه؛ حيث تكون القصبات الهوائية والحويصلات الهوائية في رئتيه محمية بحلقات غضروفية شديدة المقاومة للضغط.

ومن العجائب البديعة الأخرى في جسم الدلفين حصانته ضد خطر انخفاض الضغط، في حين أن الغواصين من البشر غالبًا ما يتعرضون لهذا الخطر الناجم عن اختلاف الضغط أثناء الصعود السريع إلى سطح الماء. سبب انخفاض الضغط هذا، هو الاختلاط المفاجئ للهواء المسحوب إلى الرئتين مع الدم، مما يؤدي إلى تكون فقاعات هوائية في الأوعية الدموية، حيث تعطل هذه الفقاعات النظام في الدورة الدموية، وتعرض صاحبها للموت.

hiragate.com

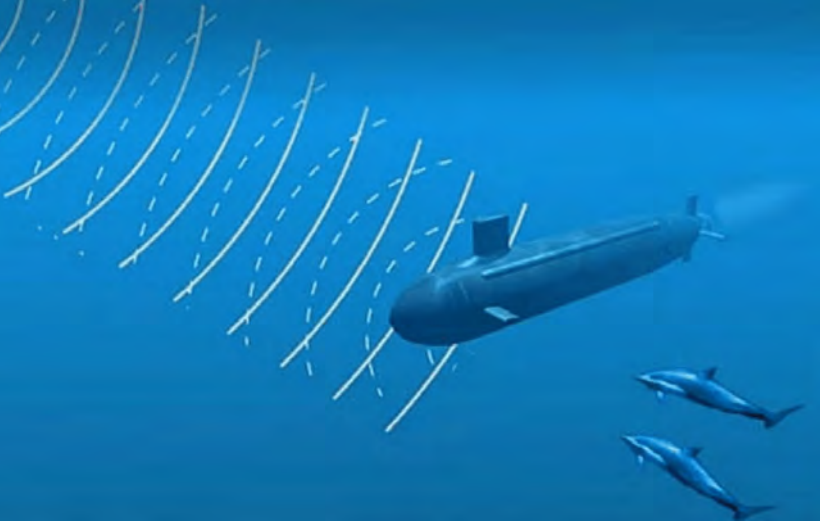

الدلفين وطائرة الكونكورد

ماذا لو قلت لكم إن تصميم مقدمة الدلفين كان مصدر إلهام لمصممي طائرة الكونكورد؟ بالفعل، لقد تأثر المهندسون بشكل أنف الدلفين المغزلي في جهودهم، لتقليل احتكاك الهواء بالسطح الخارجي لطائرة الكونكورد. وعندما لاحظوا أن زعنفة الذيل الأفقي للدلفين تعمل كمحرِّك فعَّال في الماء، قرروا وضع محركات الكونكورد في الجزء الخلفي من الطائرة، محاكاةً لمحرك الدلفين، وحققوا بذلك نتائج ممتازة في تحسين أداء الطائرة.

تطوير تكنولوجيا الغواصات

يمنح الجسم الشبيه بالمكوك لدى الدلفين القدرة على الحركة بسرعة كبيرة. ومع ذلك، اكتشف العلماء أن هناك بنية أخرى تلعب دورًا رئيسيًّا في قدرة الدلفين على التحرك بهذه السرعة، وهي جلده الذي يتكون من ثلاث طبقات: الطبقة الخارجية رقيقة ومرنة للغاية، والطبقة الداخلية سميكة ومكونة من شعيرات مرنة تمنحها مظهر فرشاة ذات شعيرات بلاستيكية، والطبقة الثالثة في الوسط مصنوعة من مادة إسفنجية. عند تعرض الدلفين لضغط مفاجئ أثناء السباحة السريعة، يتم امتصاص هذا الضغط من قبل الطبقات الداخلية مما يخفف تأثيره.

بعد أربع سنوات من الأبحاث، نجح مهندسو الغواصات الألمان في تطوير طلاء اصطناعي يحاكي خاصية جلد الدلفين. يتكون هذا الطلاء من طبقتين من المطاط مع وجود فقاعات بين الطبقات تشبه خلايا جلد الدلفين. وقد أدت هذه التقنية إلى زيادة سرعة الغواصات التي استخدمت هذا الطلاء بنسبة ٢٥٠٪.

الدلافين والسونار، ما العلاقة؟

هل تعلم أن الدلافين تعتمد على الصوت كوسيلة رئيسية للتواصل بينها؟ وهل تعلم أن سرعة انتقال الصوت في الماء أسرع بكثير منه في الهواء؟ يعتقد العلماء أن لدى كل دلفين صافرة صوتية فريدة تمثل هويتها الفردية، وتصدر الدلافين موجات صوتية بمعدل يصل إلى ٢٠٠ ألف ذبذبة في الثانية من عضو خاص أمام رؤوسها، وبفضل هذه الاهتزازات، لا تكتفي بتحديد العوائق في مسارها، بل يمكنها أيضًا تحديد اتجاه ومسافة وسرعة وحجم وشكل الجسم المعني بالتفصيل، باستخدام خصائص الصدى.

هذا وإن مبدأ السونار الذي ابتكره الإنسان، يشبه بشكل كبير الطريقة التي تعتمدها الدلافين في التواصل والاستكشاف تحت الماء، فكلاهما يعتمد على إرسال موجات صوتية واستقبال الصدى الناتج عن تفاعل تلك الموجات مع الأجسام والعوائق، فالدلافين تستخدم هذه التقنية لتحديد المواقع والأشياء تحت الماء وللتواصل مع بعضها البعض، بينما يستخدم الإنسان نفس المبدأ في أنظمة السونار لاكتشاف الأهداف تحت الماء، مما يعزز فهمنا للعالم البحري ويساهم في تطوير التقنيات البحرية.

أجل، عندما يقرأ الإنسان هذا الكون بتمعن، ويتأمل أسرار الوجود بعمق، يرى هداية كاملة تشمل الجميع بعنايتها، ويشاهد الحكمة المبثوثة في كل جنباته، من أبسط الأشكال إلى أكثرها تعقيدًا، فيفيض قلبه بالتعظيم للذي "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى". ■

(*) كاتب وباحث تركي.

hiragate.com

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
صابر المشرفي

مدير التحرير
إسماعيل قايار

سكرتير التحرير
أحمد السيد

الإخراج الفني
أحمد شحاته

تصميم الغلاف
محمد نور الدين

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-98

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضموناً.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ١٥٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani İrfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave.، Clifton، NJ، 07011، USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

للتواصل مع إدارة المجلة | hiragate@yahoo.com
+20 114 782 4322

- الصلاة معراج المؤمن المتجدد ودليله النوراني
- وسفينة السالكين من أصحاب القلوب المؤمنة
- إنها أقرب منازل السائرين الذين يرجون القرب والوصال

جديد

للأستاذ فتح الله كولن

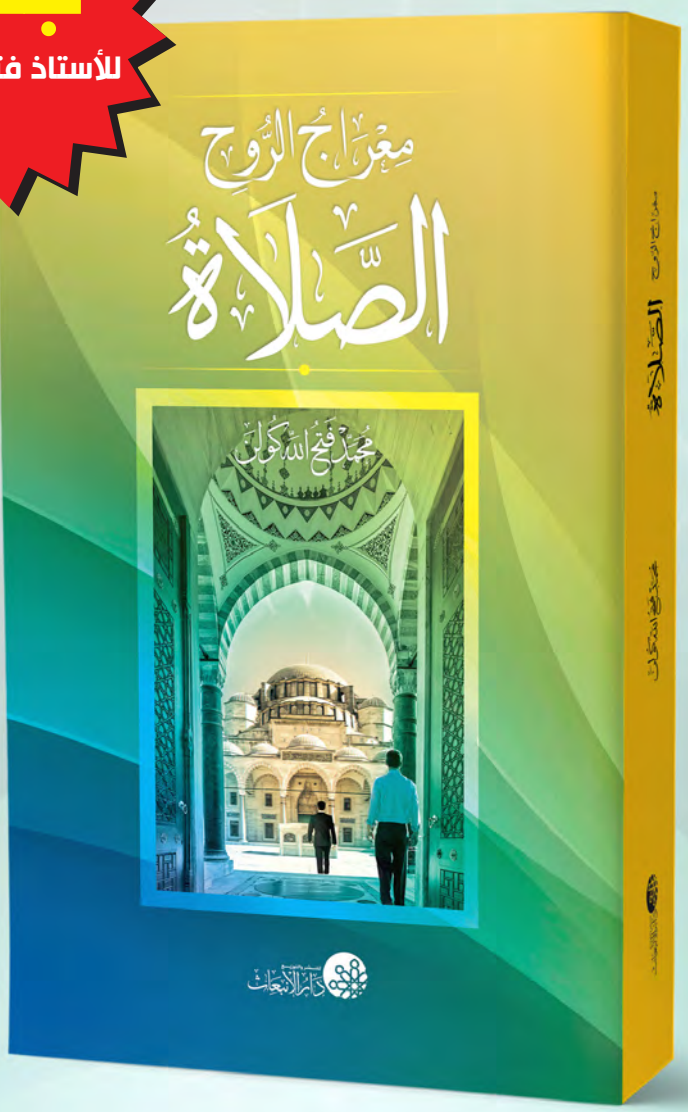

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com
00201023201002

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

صقيع وربيع

رغْمَ الشِّـتَاءِ وَعُنْفِهِ رغْمَ الشُّحُوبْ حتْمًا جلِيدُ الثّـلجِ في يومٍ يَذوبْ
والأرضُ يقْـوَى مـن جـديدٍ عَزْمُها وإذا الربيعُ بكُـلِّ بهْـجَـتِهِ يَـؤُوبْ
فاتْرُكْ شتـاتَ اليـائِسينَ، فيَا تُرَى ماذا سيَأتي خَلْفَ هاتيكَ الغُيوبْ؟!

ISSN 2357-0229
www.hiragate.com